عاطفة الآباء والأمهات في ضوء النص القرآني

آيات من القرآن الكريم أنموذجا

دراسة تحليلية لغوية بلاغية

إعداد : د. حصة عبدالله الرميح

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في قسم اللغة العربية

جامعة القصيم

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير المرسلين نبينا محمد ﷺ وعلى أله وصحبه أجمعين .

العقل والعاطفة يرتبطان ، وعندما يبتعد العقل عن العاطفة يصاب بحالة من الاضطراب، وإذا استمر في الابتعاد ؛ يُصاب بغلظة القلب، لذا حذر القرآن الكريم النَّبـيّ صلى الله عليه وسلم من الفصل بينهما فقال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ} آل عمران ١٥٩ .

ولذا لم يكن رسول الله ﷺ فظًا ولا غليظ القلب ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح، والعفو والصفح والإحسان لا يتمكنا إلا ممن كان ذا استقرار عاطفي .

وكلا العقل والعاطفة لا غنى للإنسان وبنائه الروحي عنهما، فصلابة العقل تلطفها رقة العاطفة، وطيش العاطفة يهذبها تدبير العقل، وهما عاملان مؤثران في إدارة شؤون الإنسان الحياتية ، وفي تأمين سعادته .

فإهمال العاطفة في الأفكار والمعتقدات والأنظمة يؤدي إلى هلاك الأمم وسقوطها ، والأنظمة التي تهمل العاطفة وتحكم العقل فقط ، تسقط وتزول . لأنها خالفت سنن الفطرة البشرية [١] .

---

[١] - التوازن الحميد بين العاطفة والعقل الرشيد ، مقالة ، عماد حسن أبو العينين ، http://www.saaid.net/arabic/544.htm .

وفي ظل التغيرات الاجتماعية التي حدثت في المجتمعات مؤخرا ؛ اختلت طبيعة العلاقة بين الآباء والأبناء ؛ وكثر الحديث والنقاش حول هذا الموضوع وتعددت الآراء وتضاربت الأقوال حوله ؛ وقد نظمت الشريعة الإسلامية العلاقة بين الآباء و الأبناء و وضعت أصولا للحقوق والتعاملات والالتزامات بينهما ، منطلقة من مبدأ صيانة الإنسان وحمايته [٢] ، والحفاظ على قوام الأسرة وتماسكها ، والنهوض بالمجتمع المتكامل ، مطلب أساسي للشريعة الإسلامية ، كذا حماية الأم والأب والأبن والأخ ، فعلى الكبير أن يعطف على الصغير، وعلى الصغير أن يقوم بإجلال الكبير وتوقيره ، قال رسول الله ﷺ : - " لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا " [٣] وقال ﷺ قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (رَغِمَ أَنْفُهُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ قِيلَ مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قالَ مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا ثُمَّ لَمْ يَدْخُلْ الْجَنَّةَ) [٤]

وإذا تدبرنا آيات القرآن الكريم وجدناه قد عني عناية تامة بالعلاقات البشرية عامة ، والعلاقات الأسرية خاصة ، ومن أبرز تلك العلاقات علاقة الوالدين بأبنائهم وعلاقة الأبناء بآبائهم ، وقد وضع القرآن آلية للعلاقة الناجحة بينهم .

---

[٢] - http://www.oujdacity.net/regional-article .

[٣] - مسند الإمام أحمد بن حنبل ، حديث رقم ٢٧٨٢٣ ، http://hadith.al-islam.com/ .

[٤] - صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ، ٤٦٢٨ ، http://hadith.al-islam.com .

ولهذا كانت هذه الدراسة الموجزة التي تكشف عن تصوير القرآن لعاطفة الآباء والأمهات وحنوهم على أبنائهم ، فتوضح معناها ، وقوتها وكذا ضوابطها ، كما تسفر عن سبب تميز الأم بالفضل على الأب وزيادتها عليه ، لتقف على بعض من جوانب العلاقة السليمة بين الأم وأبنائها ، كما تكشف عن طبيعة عاطفة الآباء ، ومدى قوتها وتأثيرها ، لتصل بذلك إلى كشف الستار عن أسس العلاقة الناجحة بين الوالدين وأبنائهم ، فتعنى بإبراز التصور الإسلامي لها .

أما عن أهمية البحث فالدراسة قد اعتمدت الوقوف على طبيعة عاطفة الآباء والأمهات تجاه أبنائهم ، وعنت بتصوير القرآن الكريم لها ؛ للكشف عما رسمته للبشرية من آلية العلاقة الناجحة بينهم .

ومن ثم قام البحث على : مقدمة ، وتمهيد ، ومبحث ، وخاتمة ، ودليل لموضوعاته ، وثبت لمصادره ومراجعه .

فأما التمهيد فسأتحدث فيه عن تعريف العاطفة لغويا أولا ثم أعرج بالحديث عن معناها لدى علماء النفس ، وأما المبحث فسأعرض فيه مباشرة للنصوص القرآنية التي تناولت الحديث عن الآباء والأمهات وعلاقاتهم بأبنائهم .

تمهيد :-

عاطفة :- لغة من عطف بمعنى انصرف ، ورجل

عاطف وعطوف أي حسن الخلق ، عطوف على الناس بفضله ، وتعاطفوا أي عطف بعضهم على بعض ، وتعاطف في مشيته أي تمايل وتثنى[٥] .

أما مفهوم العاطفة عند علماء النفس فهي :- استعداد ثابت نسبي ، مركب من عدة انفعالات تدور حول موضع معين ، وهي ظاهرة نفسية مكتسبة تمتزج فيها بعض الدوافع ببعض الانفعالات في حياة الناس ، وتتميز الحياة النفسية الإنسانية بوجود بعض الدوافع المكتسبة التي تنظم السلوك مثل حب الوطن ، الصداقة ، البغضاء ...الخ، ومن سمات العاطفة أنها في حقيقتها ميل استعدادي كامن مستتر ، ولكنه مهيأ للتنشيط إذا استثير ، كما أنها تتميز عن الانفعال بأنها ذات ثبات نسبي واستقرار إلى حد كبير، مما يمكن معه التنبؤ بالسلوك القادم من الإنسان إذا عرفت عواطفه ، ولا يعني هذا ثباتها إذ أنه من الملاحظ أن بعض العواطف تزول بل قد تتحول إلى نقيضها إذا اختلفت التجارب والخبرات .

وعليه فالعاطفة نشاط نفسي متعلم مكتسب بعوامل التربية والتنشئة والثقافة .[٦]

---

[٥] - لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين ابن منظور، دار الفكر - بيروت ، ط١. ، ج٩-ص٢٤٩

أولا : عاطفة الأمهات في القرآن الكريم

(آيات من القرآن الكريم أنموذجا)

١. معنى لفظ " الأم" في القرآن الكريم :-

لفظ "أم " في العربية يقابل الأب ، وهي الوالدة القريبة التي ولدت ، والبعيدة التي ولدت من ولدته ، ومنه قيل لحواء "أمنا" ،ويقال لكل ما كان أصلا لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه أمٌ [٧]، وقد ورد ذكر الأم في القرآن الكريم تسع وعشرون مرة [٨] .

قال تعالى (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ) النحل ٧٨ أي كما أخرجكم ربكم من عدم

---

[٦] - أصـول علم النفس د. عبد الحميد محمد الهاشمي ، جدة ، دار الشروق ، ٢٠٠٢ ، ص ١٨٢-١٨٣..

[٧] - مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، تصنيف الراغب الأصفهاني ، راجعه وعلق عليه نجيب الماجدي ، المكتبة العصرية ، صيد – لبنان ، ٢٠١٢م- ١٤٣٣هـ ، مادة أمم .

[٨] - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، مؤسسة جمال للنشر ، بيروت ، لبنان ، مادة - أم -

وجعل فيكم الإدراك ، وما يتوقف عليه ذلك من خلق الأسماع والأبصار والعقول ، فكذلك ينشئكم يوم البعث بعد العدم [٩].

وأما قوله سبحانه :- (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) الأحزاب) ٦

أي منزلات منزلة أمهاتهن في احترامهن وتحريم نكاحهن واستحقاق تعظيمهن [١٠]

ومما ورد في الحث على بر الوالدين قوله عز وجل :- وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرِ) لقمان ١٤

وقوله :- (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) الأحقاف١٥

ففي الآية الأولى المراد : أمرنا الإنسان [١١] برعاية والديه فقد حملته أمه ضعفا على ضعف ، وشدة على شدة ومشقة على مشقة[١٢] ؛ فكان لفظ

---

[٩] - تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، أبي السعود محمد بن محمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ج٥ ص ١٣١ ، التحرير والتنوير ج٦ ، ص ٢٣١ .

[١٠] - روح المعاني للألوسي ج١١ ، ص ١٥١ ، ٢١. ،تفسير الكشاف ، للإمام الزمخشري ، تحقيق وتعليق محمد مرسي عامر مراجعة د. محمد شعبان إسماعيل ، دار المصحف ، القاهرة ، ج٥ ص٣٥ .

[١١] - قيل هو من كلامه تعالى لم يقله لقمان لابنه وقيل هو من كلامه جل شأنه وكأنه قال قلنا له اشكر وقلنا له وصينا الانسان ... انظر المحرر الوجيز ج١١، ص ٤٩٤ .

" وَهْنًا " على صيغة المصدر[١٣] لتأكيد ضعفها ، والمراد تضعف ضعفاً متزايداً بازدياد ثقل الحمل إلى مدة الطلق ، أو تضعف ضعفاً متتابعاً وهو ضعف الحمل وضعف الولادة [١٤] . وفيه إشارة إلى ضعف الولد وضعف الأم التي تحمله [١٥]. واشار بالفصال الى تحديد مدة الرضاع ، فعبر عن الارضاع بنهايته وغايته [١٦] .

وفي الآية الثانية :- حثٌ للإنسان كذلك على برّ الوالدين ، فجميع شرائع الله تعالى وكتبه السماوية السابقة حثت على البر بهما، وقد تكررت الوصاية بهما في القرآن الكريم وحرص النبي ﷺ عليها في مواطن عديدة ؛ فكان البر بالوالدين أجلي مظهرا في هذه الأمة منه في غيرها.

والأمر في الآية موجه لجنس الإنسان ونوعه ، أي وصينا الناس الذين جاءتهم الرسل بوصايا الله بالبر بهما ، والحسن مصدر حسن أي وصيناه بحسن المعاملة أي ألزمناه بها ، وقد ورد فيها ذكر مرتبة للأب ،

---

[١٢] - تنوير القباس من تفسير ابن عباس ص ٣٤٤-٣٤٥

[١٣] - والمقصود بالمصدر (ضعفا) الحال أي حال من أمه بتقدير أي ذات وهن وجوز جعله نفسه حالا مبالغة لكنه مخالف للقياس اذ القياس في الحال كونه مشتقا ، وجوز كونه مفعولاً انظر روح المعاني ج ١١ ، ص٨٥ .

[١٤] - وقيل المراد أنها حملته حال كونه ضعيفاً على ضعيف مثله. وليس المراد أنها حملته حال كونه متزايد الضعف ليقال أن ضعفه لا يتزايد بل ينقص ... روح المعاني للألوسي ج١١ ، ص ٨٥

[١٥] - المحرر الوجيز ، ابن عطية ج ١١ ، ص ٤٩٤ أ روح المعاني ج١١، ص ٨٥ ، الكشاف ج ٥ ، ص١٩ .

[١٦] - المحرر الوجيز ج١١ ، ص ٤٩٤ .

و ثلاث مراتب وفضائل للأم هي : الحمل ثم الوضع ثم الرضاع ، المعبر عنه بالفصال فقد كان لها في هذا كله مشقة ؛ مشقة الحمل ثم مشقة الوضع ، ثم مشقة الإرضاع والفصام [١٧].

كما ورد ذكر الأم في القرآن الكريم في موطن الحديث عن أهوال يوم القيامة :-

من ذلك قوله تعالى :- (وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ) القارعة ٨-١١ .

فالآية تتحدث عن أحوال الناس يوم القيامة ؛ أهل السعادة وأهل الشقاء ، ففصل حالهم إلى حالين حال حسن وحال أليم ، فمن ثقل ميزانه ورضي الله عنه كان في حال حسن ، ومن خف ميزانه وغضب الله عليه كان في حال سوء [١٨] وقوله تعالى (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) إخبار عنه بالشقاء وسوء الحال ؛ فالهاوية هي المكان المنخفض بين جبلين ، الذي إذا سقط فيه إنسان أو دابة هلك يقال سقط في الهاوية ، وكذا الهوى ميل النفس إلى الشهوة وقيل سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية وفي

---

[١٧] - المحرر الوجيز ج١٣ ، ص ٣٤٧ ، التحرير والتنوير ج ١٠، ص ٣١-٣٢ .

[١٨] - قد يكون في الآية كناية حيث شاع عند العرب الكناية عن الفضل والشرف ، وأصالة الرأي بالوزن ونحوه ، وعكس هذا الإنسان الذي لا فضل له ولا شرف فلا وزن له (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) الكهف ١٠٥ وعندي أخذ الكلام على حقيقته أولى انظر التحرير والتنوير ج ١٢ ، ص ٥١٤

الآخرة إلى الهاوية [١٩] وهي اسم درك من أدراك النار ، وقد ورد ذكر هذه الآية بعد ذكر يوم القيامة ، قال تعالى :

(الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) القارعة ١-٣ ثم أعقبت بالإسفار عن معناها بعد ذلك (وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ) ؛ ليكون ذكرها تقريرا لها بعد إبهامها وإشعارا بخروجها عن المعهود للتفخيم والتهويل ، وأما تنكير " هاوية " فلإطلاق المعنى ولبيان غاية عمقها وبعد مهواها [٢٠] .

وأما ذكر الأم في الآية " فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ " فقد يراد به نفس معنى الأم الحقيقي أي استعملت اللفظ على حقيقته ، فيكون الكلام تمثيلا لحال من خفت موازينه يومئذ بحال الهالك ١في الدنيا لأن العرب يكنون عن حال المرء بحال أمه ؛ فلفرط محبتها له تسر لسروره وتحزن لحزنه أي قد أصابه ما تهلك به أمه ، أو يكون لفظ (أمه) مستعارا لمقره ومآله أي ستكون أمه الهاوية ، أي مأواه التي يرجع إليها ويأوي إليها ، فعبر عن المأوى بالأم على التشبيه بها حيث أنها مفزع الولد ومأواه ، ولا يخفى ما في هذا من تهكم وسخرية [٢١] وقيل بل المراد يهوون في النار على أم

---

[١٩] - المفردات مادة هوى

[٢٠] - روح المعاني ج ١٥ ، ص ٢٨٥ .

[٢١] - تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٥١٨ ، الدر المنثور في التأويل بالمأثور ،الحافظ جلال الدين السيوطي ، صححها وخرج أحاديثها نجدت نجيب ، تقديم عبد الرزاق المهدي ، لبنان بيروت ، ج٨ ، ص ٥٢٢-٥٣٣ ، روح المعاني ج١٥ ، ص ٢٨٥ ، التحرير والتنوير ج ١٢ ، ص ٥١٤ المحرر الوجيز ج١٥ ص ٥٥٥ ،

رؤوسهم على تقدير حذف مضاف – أي فأم رأسه هاوية ، لأنه يطرح فيها منكوسا على رأسه [٢٢] .

وحملها على الاستعارة أولى عندي وأقوى لما فيها من التهكم بالمذنب ولما فيها من بيان لشمولها وضمها له كما تضم الأم ابنها . والله أعلم

ويدل على هذا قوله تعالى ((يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ) عبس ٣٤-٣٥

حيث تعرض هذه الآية لأهوال يوم القيامة ، فتوضح أحوال الناس يومئذ وكيف يهرب الناجي يومذاك من المذنب المعاقب بذنبه .

فحرف (من) يجوز أن يكون بمعنى المجاوزة مثل حرف (عن) ، أي يفر منهم ، ويجوز أن يكون بمعنى التعليل الذي عُدى به فعل الفرار إلى سببه [٢٣] ، كقولنا فر من الأسد ، وفر من العدو ، أي يفر بسبب ما يحل بأخيه .

وفرار الإنسان من قرابته المقربة يقتضي هول ذلك اليوم ، إما لأنه رأى ما يحل من عذاب بأقرب الناس إليه فتوهم أن الفرار منهم ينجيه من الوقوع في مثل ما وقعوا فيه ، إذ قد علم أنه كان مماثلا لهم فيما ارتكبوه

---

[٢٢] - وقيل المراد ام راسه لانهم يهوون على رؤوسهم . تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٥١٨ ، المحرر الوجيز ج ١٥ ، ص ٥٥٥ ، الدر المنثور ح٨ ، ص ٥٥٢ ، التحرير والتنوير ج ١٢ ، ص ٥١٤.

[٢٣] التحرير والتنوير ج ١٢ ، ١٣٦ .

من الأعمال ، أو كان فراره منهم خشية أن يؤاخذ بتبعتهم إذا بقوا على الكفر[٢٤] . وربما فر منهم لاشتغاله بما هو مدفوع إليه من أمر ربه ، ولعلمه حينذاك بانهم لا يغنون عنه شيئا [٢٥] . ولذا اعتنت هذه الآية بذكر أصناف من القرابة المقربة ، فلا يخفى ما توجده القرابة في النفس من المعزة والألف والحرص على الملازمة ، فما الهول الذي يغشى على وجدان المرء ، فلا يترك له مجالا للتفكر في أهله ؛ أخيه وأمه وأبيه ؟!

هـذا وقد ابتدأ بذكر الأخ لاتصاله بالإنسان زمن الصبا وقربه منه ، ثم ارتقى من الأخ إلى الأبوين وهما أشد قربا ، وإن كان قد قدم ذكر الأم لأن ألف ابنها بها أقوى وأشد منه بأبيه [٢٦] .

عاطفة الأمهات :-

يُبرز القرآن الكريم عاطفة الأمهات في العديد من الآيات ويصورها أجمل تصوير ؛ ومن أبرز تلك النماذج قصة نبي الله موسى مع أمه ، وقصة نبي الله عيسى وأمه مريم .

أ- قوة العاطفة : جاشت نفس أم موسى بالعديد من المشاعر وقاذفتها الانفعالات والمشاعر من أحزان وخوف ورعب على ابنها نرى ذلك مصورا بدقة وإعجاز في الآيات التالية :-

---

[٢٤] - تفسير ابن عباس ص ٥٠٢ ، التحرير والتنوير ج ١٢ ، ص ١٣٥-١٣٦

[٢٥] - الكشاف ج ٦ ، ص٢١١

[٢٦] - التحرير والتنوير ج ١٢ ، ص ١٣٥-١٣٦ .

نبي الله موسى عليه السلام وأمه :-

قال تعالى : ((قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ) طه ٣٦-٤٠

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) القصص ٥-١٣

ففي الآية الأولى : نودي (يا موسى) تشريف له عليه السلام بشرف الخطاب إثر تشريفه بشرف قبول الدعاء ، وقوله سبحانه (ولقد منا)

كلام مستأنف [٢٧] لتقرير ما قبله من كلام وتأكيده ولزيادة توطين قلب موسى عليه السلام بالقبول ببيان أنه تعالى قد أنعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء وطلب منه ، ليعلم أنه كان بمحل العناية من ربه منذ أول أوقات وجوده ، تمهيدا لما أراد ربه به من الاصطفاء والرسالة ، وأما تصديره الجملة بالقسم (ولقد) ، فلتحقيق الخبر وتأكيده ، ولبيان كمال الاعتناء به أي وبالله لقد أنعمنا عليك . وأما عن تحقيق الخبر لموسى رغم أن موسى قد علمه ؛ فذلك للتأكيد على اللازم المراد منه ، وهو بيان أن عناية الله به دائمة لا تنقطع ، وللزيادة في طمأنينته ﷺ ، ببيان أن الإنعام عليه في حال دعائه وطلبه أولى وأدعى ، فقد توالت عليه النعم والمنن وامتدت من ربه ، وأولها ما ورد عقب قوله تعالى (إذ أوحينا) [٢٨].

أما عن المقصود بالوحي إلى أمه ﷺ [٢٩] فهو ؛ إما وحي إلهام ، والإلهام : ايقاع معنى في نفس المرء ، تثلج له نفس الملقى إليه بحيث يجزم بنجاحه فيه ، ويُوجد عنده انشراحٌ للصدر يدفعه إلى تنفيذ ما أمر به ، فهو خاطر من الواردات الالهية ، والإلهام الصادق يعرض للصالحين

---

[٢٧] - ويجوز كونها معطوفة على الجملة السابقة (قد أوتيت سؤلك) لكونهما متضمنتان معنى المنة عليه . الموضع السابق

[٢٨] - تفسير أبي السعود ج ٦ ، ص ١٤ ، التحرير والتنوير ج ٧ ، ص ٢١٥ .

[٢٩] - قيل اسمه قيل اسمها " يوحانة "وقيل اسمها لُوحا بنت هاند بن لاوي بن يعقوب ، وقيل يوحانذ ، وقيل بوخابيل ، والصواب لم يعرف اسمها في الكتب ، وذكرُ المفسرين اسماء لها لا يوثق صحتها ، انظر تفسير ابن عباس ص ٣٢٣ ، الدر المنثور ج٥ ص ٤٩٩ انظر المحرر الوجيز ج١١، ص ٢٦٢ ، ، التحرير والتنوير ج٧ ، ص ٢١٧ .

فيوقع في نفوسهم يقينا يُبعثون فيه إلى عمل ما ألهموه ، وإما الوحي [٣٠] برؤيا صادقة رأتها [٣١].

وأما قوله : (بما يوحى) فالمراد ما سيرد من الأمر بإلقائه في اليم والقائه في التابوت وقذفه في البحر [٣٢] ، وقد أبهم الوحي بالموصول بدءا ولم يصرح به لتهويله وتفخيم شأنه ، ولبيان أهمية الأمر الموحى به ، فحينما يتبعه تفسيره فيما بعد يكون أقر عند النفس وأثبت ، كما يفيد تأكيد كونه إلهاما من قبل الحق جل وعلا [٣٣] ، (أن اقذفيه) وقعت " أن " مفسرة للوحي[٣٤] ، ومعنى القذف ههنا الوضع في التابوت[٣٥] .

---

[٣٠] - وقيل قد يقصد به الإيحاء على لسان نبي في وقتها كما في قوله تعالى (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ) المائدة ١١١ ، وإما الإيحاء بواسطة الملك –لا على وجه النبوة – تفسير أبي السعود ج٦ ، ص ١٤ .

[٣١] - تفسير أبي السعود ج٦ ، ص ١٤ ، التحرير والتنوير ج ٨ ، ص ٧٢ ، ج ٧، ص ٢١٦ . .

[٣٢] - وقيل معناه ما ينبغي أن يوحى ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به، وقيل ما لا يعلم إلا بالوحي ، وقيل لا يتلائم هذان المعنيان الوحي إذ لا تفخيم لشأنه تفسير أبي السعود ج ٦ ، ص ١٤

[٣٣] - التحرير والتنوير ج٧ ، ص ٢١٦ أ تفسير أبي السعود ج ٦ ، ص ١٦ .

[٣٤] - وقد تكون مصدرية حذف منها الباء أي بأن اقذفيه .. تفسير أبي السعود ج ٦ ص ١٥ ،

[٣٥] - التابوت ؛ آلة معروفة تنحت من الخشب وغيره ، وأصله لما يوضع فيه الميت ثم قد يوضع فيه غيره . المفردات مادة تبب ، اعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي المعروف بالسمين ، ت. عبد السلام أحمد الحلبي ، ط١ ، ١٤٢٤هـ ، ١٩٩٥م ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ن مادة ت. ب. ت ج١ ، ص ٤٠٠ ، واختلف في أصل حروفه انظر لسان العرب ج١ ، ص ٢٣٣

جملة (اقذفيه في التابوت) مفسرة للوحي ، أو مصدرية حذف منها الباء أي بأن اقذفيه والمقصود بالقذف ههنا الوضع ، وأصل معنى القذف : الرمي والطرح البعيد [٣٦] وأما إطلاقه على الوضع في التابوت ، فذلك لتمثيل هيأة المُخفي عمله ، فهو يسرع ويضعه من يده كهيأة من يقذف حجرا ونحوه[٣٧] ، وهذا التعبير يتلاءم وخوفها وخشيتها على موسى في ظل تلك الظروف القاهرة ، حيث العيون والأرصاد التي أطلقها فرعون لتتعقب نسل بني اسرائيل وتتربص بهم ، مع عجزها عن حمايته أو إخفائه أو حجز صوته الفطري من أن ينم إليهم .

واليم في كلام العرب مرادف البحر[٣٨] ، والبحر يطلق في كلامهم على الماء العظيم المستبحر فالنهر العظيم يسمى بحرا وقصد به هنا النيل الذي كان يشق مدينة فرعون [٣٩] ، والساحل شاطئ البحر[٤٠] ولام الأمر في فليلقه دالة على أمر التكوين أي سخرنا اليم لأن يلقيه بالساحل ، والمراد

، مادة ت و ب ، وقيل اسم عجمي معرب وزنه فاعول وهذا الوزن قليل في العربية ..التحرير والتنوير ج ١ ، ص ٤٩٣ .

[٣٦] - المفردات مادة ق .ذ .ف

[٣٧] - ، تفسير ابن عباس ص ٣٢٣ ، المحرر الوجيز ج١١، ص ٢٦٢ ، الدر المنثور في التأويل بالمأثور ج٥ ص ٤٩٨ ، تفسير أبي السعود ج٦ ، ص ١٣التحرير والتنوير ج ٧ ، ص ٢١٦ .

[٣٨] - المفردات مادة ي ، م ، .م

[٣٩] - - المحرر الوجيز ج١١، ص ٢٦٢ ، تفسير ابن عباس ص ٣٢٣ ، ٣٤٤، الدر المنثور في التأويل بالمأثور ج٥ ص ٤٩٨، ج٦ ، ص ٣٤٨

[٤٠] - المفردات مادة س .ح .ل .

ساحل معهود ؛ وهو الذي كان يقصده أل فرعون للاغتسال والمنافع الأخرى [41]. وليس المراد بالساحل نفس الشاطئ بل ما يقابله من الوسط وهو ما يلي الساحل فلما كان إلقاء اليم له بالساحل امرا واجب الحدوث لإرادة الله سبحانه وتعالى ، جُعل البحر كأنه ذو تمييز مطيع ، أمر من ربه فنفذ أمره ، فأخرج الجواب مخرج الأمر[42] .

و الضمائر في (اقذفيه ، اقذفيه ، فليلقه ، يأخذه) إلى موسى ، فالمقذوف في البحر والملقى بالساحل وإن كان هو التابوت أصالة ، إلا أن المقصود بالحديث من فيه ، لذا جعل التابوت تابعا له في ذلك ، لحضوره في ذهن أمه الموحى إليها [43] . والتي يغلب يقينها بوعد الله ، عاطفتها فتسارع إلى تنفيذ أمر ربها عاملة على نجاة طفلها رغم إلقائه في اليم ، ثم يأتي جواب أمر الإلقاء (يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ) وهذا العدو هو من كانت أم موسى تخافه ، بل هو أخشى ما تخشاه وما فعلت ما فعلته إلا لتنجو بموسى عن فرعون وجنوده ، فيأتي التعليل ، ليكون تحديا لموسى وقومه الذين عملوا على تتبع الرضع من الصبيان وقتلهم ؛ فيأتيهم الله

---

[41] -التحرير والتنوير ج ٧ ، ص ٢١٦ ، تفسير أبي السعود ج ٦ ص١٤ .

[42] - تفسير أبي السعود ج ٦ ، ص ١٣-١٥ .

[43] - يجوز جعل الضميرين الأخيرين عائدين إلى التابوت ولا لبس في ذلك لأن موسى ضمنه . انظر تفسير أبي السعود ج٦،ص ١٤ ، التحرير والتنوير ج ٧ ، ص ٢١٧

بطفل بين أيديهم بلا تعقب أو استراق سمع أو تجسس خلف البيوت ، فلا يقتلوه ليجري أمر الله [٤٤] .

ولذا يتكرر لفظ " العدو" للمبالغة والتصريح بالأمر والإشعار بأن عداوة فرعون لموسى مع تحققها لن تؤثر فيه ولن تضره بل ستؤدي إلى المحبة والرعاية ، فالأمر الأول الذي ظن أنه مدعاة للهلاك ـ من قذفه في البحر ومن ثم وقوعه في يد فرعون عدو الله وعدوه ـ مشعر بأن هناك لطفا خفيا مندرجا .

فأما عدوان فرعون لله فلأنه انتحل لنفسه الإلهية ، وأما عدوانه لموسى فعلى التقدير في المستقبل وهو عدوه في حال القصة فلو علم أنه من غلمان بني إسرائيل لقتله ، حيث عمل على قتل أبنائهم [٤٥] .

ولرحمة الله بموسى وتنفيذا ، لما أراده سبحانه كانت محبة فرعون وأله لموسى (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي) عطفت على جملة (أوحينا) السابقة أي حين أوحينا إلى أمك ،ألقيت عليك محبة ، وقد نكرت محبة لما في تنكيرها من المبالغة الإضافية والتفخيم ، ولبيان أنها محبة خارقة غير المحبة العرفية بدليل قول امرأة فرعون في الآية الثانية (قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ

---

[٤٤] ـ في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة ، ط١٠ ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ، ج ٤ ، ص ٢٣٣٥

[٤٥] ـ تفسير ابن عباس ص ٢١٦ ، ٢٦١، التحرير والتنوير ج ٧ ، ص ٢١٧

) [٤٦] أي محبة عظيمة كائنة مني قد زرعتها في القلوب لك ، وقيل المراد كل من رآك أحبك ، أي كل من رأى موسى ألقيت عليه محبة من الله .

ومن تمام نعمته سبحانه على موسى أن شرفه تعالى بحفظه ورعايته له (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) هذه الجملة متعلقة بلفظ (ألقيت) معطوف على علة له مضمرة أي ليتعطف عليك ولتربى على الحنو والشفقة بمراقبتي وحفظي ومراعاتي [٤٧]، وقد يكون عطفٌ على الجملة السابقة (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ) ليأتي الأمران إتمام لمنة واحدة ؛ منة النجاة من الهلاك ، ومنة النجاة من الإهمال المفضي إلى الهلاك إذا ولي أمره من لا يشفق عليه[٤٨] .

ومن رعاية ربه له أن جعل أخته تصل إليه [٤٩] ، لتدلهم على من يرضعه فيُرد بهذا لأمه ، فلفظ (إذ) ظرف " لتصنع" على أن المراد به

---

[٤٦] - روي انها جعلت في التابوت قطنا ووضعته فيه ثم قيرته وألقته في اليم وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر صغير فدفعه الماء إليه فأتى به إلى بركة في البستان ، وكان فرعون جالسا مع آسية بنت مزاحم فأمر به فأخرج ففتح فإذا هو صبي أصبح الناس وجها فأحبه فرعون حبا شديدا وذلك قول الله (وألقيت عليك محبة مني) وقيل " من " متعلقة بمحذوف وقع صفة لمحبة مؤكدة ، وقيل بل " من " متعلقة بالقيت أحببتك ومن احبه الله احبته القلوب لا محالة . تفسير أبي السعود ج ٦ ، ص ١٥

[٤٧] - الصنع مستعار للتربية والتنمية تشبيها لذلك بصنع شيء مصنوع ، كما يقال لمن أنعم عليه بنعمة عظيمة ، هو صنيعة فلان .

[٤٨] - تفسير ابن عباس ص ٢٦١ ، تفسير أبي السعود ج ٦ ، ص ١٥ ، التحرير والتنوير ج ٧ ، ص ٢١٨ .

[٤٩] - قيل اسمها مريم انظر الدر المنثور في التأويل بالمأثور ج٦ ص ٣٤٨ ، تفسير أبي السعود ج ٦ ،ص ١٦، التحرير والتنوير ج٧ ، ص ٢١٨ .

تصوير وقت مشيها لبيت فرعون وما ترتب عليه من القول [٥٠] وقولها : (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ) لا يراد به الاستفهام وإنما يراد به العرض . ورجوعه إلى أمه ، نعمة إضافية - على ما سبق من نعم – عليه لإتمام نمائه وحفظه ، وعلى أمه لنجاته أولا ، ورجوعه لها ثانيا .

وحرف الفاء في (فرجعناك الى أمك) فصيحة معربة عن محذوف قبلها يعطف عليه ما بعدها أي فقالوا دلينا عليها فجاءت بأمك فرجعناك إليها ، كما أن فيه إشارة إلى تعاقب الأمـــر وتسارعه بعد رؤية أخته له [٥١] ، ثم علل سبحانه لرده إلى أمه بقوله ((لتقر عينها) و (لا تحزن) وعطف نفي الحزن على قرة العين لتوزيع المنة وتفصيلها ولبيان واسع فضله سبحانه ؛ بأنه عدّ وجلّ قد أقر عينها برجوع ابنها إليها ، كما أذهب حزنها بسلامته من الغرق والهلاك ، وزاد له مع هذا حسن المأوى ، وأما تقديم ذكر قرة العين وهو السرور على انتفاء الحزن ، رغم أن الأول أخص وأولى بالتقديم ، حيث أن السرور يستلزم انتفاء الحزن ؛ فذلك ، لبيان ما في الأمر من حكمة أخذه منها ثم رده إليها وبقاؤه سالما [٥٢] وكذا لتأكيد وإقرار عدم حزنها لفراقه بعد ذلك [٥٣] .

---

[٥٠] - تفسير أبي السعود ج ٦ ، ص ١٥ .

[٥١] - قيل أنه فارقها بعض يوم . التحرير والتنوير ج٨ ، ص ٧٤ .

[٥٢] - التحرير والتنوير بتصرف ج ٧ ، ص ٢١٩ .

[٥٣] - الدر المنثور ج ٦ ، ص ٣٤٨.

أما الآيات الثانية من سورة القصص :

فقد وردت القصة متصدرة بالحديث عن الوحي ، فوردت جملة (وأوحينا) معطوفة على جملة (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ) لتضمنها تفصيلا لمجمل القول .

وجملة أن أرضعيه) مفسرة لقوله تعالى: (أوحينا) ومضيفة ذكر أمرها بالإرضاع عقب الولادة ذاك لأن الخوف كان عقب الإرضاع ، " فإذا " ظرف لما يستقبل من الزمان ، وأمر الرضاعة يتضمن إخفاؤه مدة ترضعه فيها ، أي إن خفت عليه أن يُعرف خبره ، فألقيه في اليم ، والإلقاء طرح الشيء حيث تلقاه أي حيث تراه ، ثم صار في التعارف اسما لكل طرح [٥٤]، وهذا التعبير يتناسب وحال أم موسى لإسفاره عن تتبعها مسار موسى ، أما عن أمره تعالى إياها بإرضاعه ؛ فذلك لتقوى بنيته بلبان أمه لفائدته للطفل في أول عمره ، وليكون له من الرضاعة الأخيرة قبل إلقائه في اليم قوت يشد به بنيته ، فيما بين إلقائه في اليم والتقاط آل فرعون إياه ، وإيجاد مرضعة له [٥٥] . ولطمأنة قلب أم موسى بشرت بما يزيل همها ويعينها على تنفيذ أمر ربها بأنه تعالى راده إليها ، زاد على ذلك تبشيرها بما سيكون له من مقام كريم في الدنيا والآخرة وبأنه من المرسلين [٥٦] وفي هذه الآية مثالا من أمثلة الإعجاز القرآني حيث جمعت

---

[٥٤] - المفردات مادة ل ق ى .

[٥٥] - التحرير والتنوير ج ٨ ، ص ٧٥ .

[٥٦] - تفسير ابن عباس ص ٢٦١ ، التحرير والتنوير ج ٨ ، ص ٧٥ .

خبرين ، وأمرين ، ونهيين ، وبشارتين ؛ فالخبران هما قوله (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى) وقوله : (فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ) لعلمه سبحانه بأنها ستخاف .

والأمران هما : (أَرْضِعِيهِ) و (أَلْقِيهِ) .

والنهيان هما : (لَا تَخَافِي) و (لَا تَحْزَنِي) .

والبشارتان : (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ) و (وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) .

والحزن في اللغة يعنى : الحُزن والحَزَن خشونة في الأرض وخشونة في النفس لما يحصل فيها من الغم وضده الفرح فكأنه بذلك أطلق وأريد به ما غلظ من الهم [٥٧] ، فهو حالة نفسية تنشأ عن أمر مكروه للنفس .

أما الخوف فهو توقع أمر مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة ، وضده الأمن [٥٨].

والنهي عن الخوف والحزن نهي عن سببيهما ، وهما توقع المكروه والتفكر في الفراق لعلم أم موسى بقتل فرعون لأبناء بني إسرائيل ، ولصعوبة تنفيذ هذا الأمر على أم موسى ، ولمؤانسة قلبها المهموم الخائف على رضيعها ، كان وعد الله (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) فكانت الجملة في موطن العلة للنهيين السابقين ؛ لأن وعد الله وضمانه لها برده إليها يقتضي ألا يهلك ، وألا تشقى ببعده عنها ، فيتم

---

[٥٧] - المفردات مادة ح . ز . ن ، لسان العرب ج١٣ ص١١١-١١٢

[٥٨] - المفردات مادة خ. و. ف .

فضله تعالى عليها بإدخال السرور لقلبها ؛ بالبشارة بأنه من المرسلين إلى فرعون وقومه [٥٩] .

ويصرح بطريقة أخذ آل فرعون لموسى بقوله تعالى (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ) فالالتقاط : افتعال من اللقط وهو تناول الشيء الملقى في الأرض بقصد أو ذهول [٦٠] وآل فرعون أهله ؛ قيل أن أسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم في اليم فأمرت بسوقه وفتحه ، فرأت فيه صبيا صغيرا فرحمته وأحبته ، وقيل رآه فرعون يعوم فأمر بسوقه ، وآسية جالسة معه ، فكان ما تقدم[٦١] .

وأما إسناد الالتقاط إلى آل فرعون فلأن استخراج تابوت موسى من النهر كان من إحدى النساء الحافات بزوج فرعون على ساحل النهر . فبعد انتشال تابوت موسى أحضر الى فرعون وامرأته فرقت له امرأة فرعون فصرفته عن قتله بعد أن هم به حيث علم من مظهره أنه من بني اسرائيل ، كما علم أن النيل لم يحمله من مكان بعيد لحال تابوته الذي لا يظهر عليه طول مكث في الماء أو اضطراب بكثرة التنقل .

---

[٥٩] - تفسير ابن عباس ص ٢٦٢ ، التحرير والتنوير ج ٨ ، ص ٧٥ ،

[٦٠] - لسان العرب مادة ل. ق. ط .

[٦١] - قيل أن جواريها كان لهن فرضة في القصر على النيل يدخل الماء فيها الى القصر حتى ينلنه في المرافق والمنافع فبينما هن يغسلن في تلك الفرضة إذ جاء التابوت فحملنه إلى مولاتهن . المحرر الوجيز ج١١ ، ص ٢٦٥

واللام في (ليكون لهم عدوا) هي لام العاقبة ، فلم يكن غرضهم وقصدهـــم من الالتقاط أن يكون لهم عدوا [٦٢] فاللام في ليكون لام التعليل ، وهي متعلقة بقوله "التقطه" وحق لام التعليل ان تكون جارة لمصدر منسبك من أن المقدرة بعد اللام ومن الفعل المنصوب بها فذاك المصدر هو العلة الباعثة على صدور ذلك الفعل ، وقد استعملت اللام في الآية استعمالا واردا على طريقة الاستعارة دون الحقيقة لظهور أنهم لم يكن داعيهم إلى التقاطه أن يكون لهم عدوا وحزنا ولكنهم التقطوه رأفة به وحبا له لما ألقي في نفوسهم من شفقة عليه ، وكان عاقبة التقاطهم إياه أن كان لهم عدوا في الله وموجب حزن لهم ، فشبهت العاقبة بالعلة في كونها نتيجة للفعل كشأن العلة ، تبعا لاستعارة معنى الحرف إلى معنى اخر هو الاستعارة التبعية أي استعير الحرف تبعا لاستعارة معناه ثم سرت من المعنى إلى الحرف [٦٣] .

وأما استخدام ضمير " لهم " في قوله : (ليكون لهم عدوا) فباعتبار الوصف لأن موسى كان عدوا لدين فرعونٍ ، لا لفرعون ذاته ، أي ليكون لدولتهم وأمتهم عدوا وحزنا .

ووصفه بالحزن وهو مصدر على تقدير متعلق محذوف أي حزنا لهم بدلالة " لهم " السابق [٦٤] فالإسناد هنا إسناد مجازي عقلي ، لأن موسى

---

[٦٢] - الدر المنثور ج٥ ، ص ٤٩٨-٤٩٩

[٦٣] - التحرير والتنوير ج ٨ ، ص ٧٥ .

[٦٤] - فليس هذا من باب الوصف بالمصدر للمبالغة ، كفلان عدل ، لأن ذلك يتحقق إذا كان المصدر واقعا موقع اسم الفاعل .التحرير والتنوير ج٨ ، ص ٧٦ .

سببٌ للحزن ، وليس هو الحزن [٦٥] ، ولذا أعقبت هذه الجملة بقوله تعالى : (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ) لتكون في موضع العلة للجملة السابقة أي قدر الله نجاة موسى ليكون لهم عدوا وحزنا لأنهم كانوا مجرمين فجعل الله ذلك عقابا لهم لكفرهم وظلمهم .

أما اقتران ذكر فرعون بهامان[٦٦] في الآية فذلك للدلالة على اشتراكهما في الشر والكفر والظلم .

وقولها (لا تقتلوه) أريد بالخطاب فرعون ونزل منزلة الجماعة ليدخل فيه خطاب أهل دولته هامان والكهنة - الذين ألقوا في نفس فرعون أن فتى من بني اسرائيل يفسد عليه مملكته – فكأنها بهذا تمهد لفرعون لإجابة سؤالها ؛ حين أسندت معظم القتل لأهل الدولة وجعلت لفرعون منه حظ الواحد من الجماعة ، فكانت بذلك معرضة أن قتل موسى الطفل ، لا ينبغي أن يكون عن رأيه ، فتهون عليه عدوله عن قتله عما تقرر من قتل الأطفال حينئذ .

وكذا قولها " قرة عين لي ولك " [٦٧] فيه تمهيدٌ وعرضٌ لما ورد بعده (لا تقتلوه) ولذا عللت لطلبها عدم قتله (عسى أن ينفعنا) فكان تابعا

---

[٦٥] - التحرير والتنوير ج٨ ، ص ٧٦ .

[٦٦] - قال معظم المفسرون هامان كان وزيرا لفرعون وكذا ظاهر هذه الآيات يقتضي كونه وزيرا له بدليل قوله تعالى (وجنودهما) وقد يكون "هامان " اسما للوزير ، كما قد يكون لقبا للوزير في تلك الدولة ، دولة فرعون . التحرير والتنور ج ٨ ، ص ٧٢ .

[٦٧] - المحرر الوجيز ج١١، ص٢٦٦ ، التحرير والتنوير ج٨ ، ص ٧٩

لتعليلها السابق ؛ أي ينفعنا في ضيعتنا أو نتبناه وهم لا يشعرون بأنه ليس منا [٦٨]، وفي قولها هذا إزالة لما خامر نفس موسى من خشية فساد ملكه على يد فتى من بني إسرائيل ، بأن هذا الفتى لا يكون هو المُخَوف منه ، لأنه بعد انضمامه إليهم أصبح ربيبهم فيرجى نفعه وأن يكون لهم كالولد ، فهكذا هو الأمر في علاقات التربية والمعاشرة والتبني [٦٩].

هذا عن حال موسى أما عن أمه فقد أخبر تعالى عنها (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا)

فأصبح تدل على دوام الحال واستقراره (فارغا) من الفراغ وقيل في توجيه معنى فارغا ؛ فرغ من كل شيء إلا من ذكر موسى[٧٠] وقيل المقصود فراغ عقلها أي ذهابه ، على الاستعمال المجازي للفراغ ، وقيل فارغا من الصبر على فقد ابنها ، وقيل فارغا من تذكر وعد الله لها بنجاته ، أي تناسته بالهم وفتر أثره في نفسها ، إذ أقنطها الشيطان بسبب

---

[٦٨] - تفسير ابن عباس ص ٣٢٣ .

[٦٩] - التحرير والتنوير ج ٨ ، ص ٧٩-٨٠

[٧٠] - روي أن أم موسى عليه السلام أخذته ولفته في ثيابه ، وجعلت له تابوتا صغيرا ، وقيرته وشدته عليه بقفل ، وعلقت عليه مفتاحه وأسلمته ثقة بالله وانتظارا لوعده ، فلما غاب عنها عاودها خوفها ، الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد الأنصاري القرطبي ت. إبراهيم اطيفش ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، ج ١١ ، ص ، ١٩٥تفسير أبي السعود ج ٦ ، ص ١٥ .

ما أدخله عليها من أنها خرجت به من القتل المشكوك إلى القتل المحقق " فررت به من قتل لك به أجر وقتلته بيدك "[٧١] فاهتمت به وكادت تفتضح .

فهذه الآية تجمع بين الثناء على أم موسى بحسن ثقتها بالله ، وإيمانها به ، وبين تغلب عاطفة الأمومة عليها وتحرك شوقها لولدها وخوفها عليه ، وأوشك أن يطير عقلها من فرط الخوف عليه ، فلا عقل ولا وعي ولا قدرة لها ، فأشغلها همها بابنها عن وعد ربها برده إليها ففؤاد أم موسى فارغا لفراق موسى ، مما ألهاها عن تذكر وعد ربها ، حتى أوشكت أن تفقد رباطة جأشها وتظهر أمر ابنها [٧٢] ، ولذا تداركتها رحمة ربها بالربط على قلبها بوضع اليقين في نفسها ، بعد أن كادت تبديه .

ولذا كانت جملة (إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ) عطف بيان على جملة (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا) ومجيء حرف الجر مع ضمير موسى (به) إما لتأكيد التصاق موسى بالإبداء حيث أن أصل الكلام (لتبديه) ، وإما على إرادة تضمين (تبدي) معنى (تبوح) .

---

[٧١] - ، تفسير ابن عباس ص ٣٢٣ ، المحرر الوجيز ج ، الدر المنثور ج ٦ ، ص ٣٤٨ ، التحرير والتنزير ج٨ ، ص ٨٠-٨١ ، في ظلال القرآن ج٥ ،ص ٢٦٧٩-٢٦٨٠ .

[٧٢] - قيل كادت تخرج إلى الناس وتصرخ بنداء ولدها .لهلعها وإشفاقها عليه أن يقتل ، وقيل لما جاءته أمه وأخذ منها بعد الرضاعة ، كادت تقول هو ابني لولا ان ربطنا على قلبها بالصبر لتكون من المصدقين بوعد الله أن يكون من المرسلين (ان كادت لتبدي به) أي امر ابنها روى عن رسول الله ((كادت أم موسى أن تقول وا ابناه ، وتخرج صائحة على وجهها) انظر المحرر الوجيز ج ١١ ، ص ٢٦٦، التحرير والتنوير ج٨ ، ص٨١-٨٢ .

والمراد بالربط على القلب توثيقه من أن يضعف - كما يشد على العضو الواهن - بخلق الصبر فيه ، وتأنيسه وتقويته بالإيمان واللام في (لتكون) للتعليل أي لتحرز رتبة المؤمنين المصدقين بأمر الله ووعده .

ثم ومن نعم المولى المتتابعة على موسى وأمه ، أن ألهمها إرسال أخته لتقصه وتتبعه . [٧٣] والقص تتبع الاثر ، والقصص الأثر[٧٤] وفيه دلالة على دقتها وحرصها في تتبع مواضعه وأثره وأما قوله تعالى "بصرت" فذاك لأن البصر بالشيء يعني أنه صار ذا بصر به ، أي باصرا له ، فالتعبير يفيد قوة الإبصار أي قوة استعمال حاسة البصر وهو التحديق إلى المبصر ، و(بصر) أشد من (أبصر) حيث أن الأولى تستلزم اتباعها بحرف الباء الدال على السببية [٧٥] لتدل على شدة العناية برؤية المرئي – المفعول به – حتى صار الفاعل باصرا بسببه ، وأما تحديد رؤيتها له بـ (عن جنب) فلبيان أنه كان عن ناحية من غير قصد ولا قرب يشعرهم بها ، والمعنى عن مكان جنب ، أي مكان بعيد ، فلم تدن منه لئلا يُشعر بها ، و(عن) هنا للمجاوزة لبيان حال أخته حين بصرته عن بعد[٧٦] ، فلم يغلبها شوقها وعطفها عليه وتتوجه إليه .

---

[٧٣] - - فيروى أن أخته خرجت في المدينة تبحث متخفية فرأته عند قوم من حاشية آل فرعون يطلبون له المراضع . انظر المواضع السابقة .

[٧٤] - المفردات مادة ق . ص .ص .

[٧٥] - ويجوز أن تكون الباء زائدة للتأكيد

[٧٦] - التحرير والتنوير ج ٨ ، ص ٨٣

ويخبر سبحانه عن الظروف التي أحاط المولى موسى بها ليرده إلى أمه أولها فص أخته له وثانيها إعراضه عن المراضع (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ) يقتضي هذا ان الله خصه بالامتناع عن التقام أثداء النساء بما يشذ به عن عرف الاطفال والمراضع ليضطر آل فرعون إلى البحث له عن مرضع ، ولعل أمر أمه بإرضاعه أولا قبل الإلقاء ، كان مقدمة لذلك حيث تعود فيها على ثدييها ومجيء الفاء الفصيحة مقترنا بالقول (فقالت) يؤذن بجملة مقدرة أي فأظهرت أخته نفسها وكأنها مرت بهم عن غير قصد ، ومن النص يظهر أن قولها هذا كان بعد أن فشا في الناس طلب المراضع له ، فتعاقبت عليه المراضع في زمن قصير ، وكان عرضها بطريق الاستفهام للتلطف مع آل فرعون وإبعادا المظنة عن نفسها ، (يكفلونه) أي يحسنون تربيته ويتعهدون بحفظه وإرضاعه [٧٧].

والعدول عن الجملة الفعلية إلى الجملة الإسمية في (وهم له ناصحون) لقصد تأكيد أن النصح من سجاياهم وطباعهم فلم يقل "ينصحونه" كما في (يكفلونه) لأن الكفالة [٧٨]أمرها أسهل من النصح والعناية فالنصح[٧٩] يعني العمل الصالح الخالي من التقصير والفساد ، والنصح تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه ، ففيه معنى الاخلاص ، أما الكفالة فتعني الضمان أي يضمنونه (وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا)آل عمران٣٦ أي

---

[٧٧] - ويدل اللفظ على أن من عادتهم في الإرضاع أن يسلم الطفل إلى المرآة التي ترضعه ليكون عندها فيتحقق بذلك وعد الله برده لها .

[٧٨] - المفردات مادة ك ف ل

[٧٩] - المفردات مادة ن ص ح .

تضمنها ، وتعليق "له" بـ"ناصحون" للتأكيد على حدوث العناية منهم له ولأمثاله .

ب : طبيعة العاطفة

وهنا نعرج إلى نبي الله عيسى عليه السلام وأمه مريم

قال تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) مريم ١٦-٢٩

ورد ذكر قصة مريم عقب ذكر قصة زكريا وعطف القصة على القصة لا يراعى فيه مخالفة الجملتان في الخبرية والانشائية فابتدأت الآيات بـ"اذكر مريم" أي اذكر خبرها حيث أن الذكر لا يتعلق بالأعيان والمراد

اتلوا ، وافتتاح القصة بهذا النحو فيه زيادة اهتمام بها وتشويق للسامع ليعرفها ويتدبرها .

والكتاب المعني القرآن الكريم وهذه القصة منه وعلة تقييد هذه السورة بأنها من الكتاب دون البقية لبيان أنها من القرآن ،من وحي الله ، وما ورد بعدها من قصص ينحو نحوها .

"إذ" اسم زمان ، أريد به زمن انتباذ مريم أهلها ، أو " إذ" طرف متعلق بفعل الذكر باعتبار ما تضمنه من معنى القصة ، لا باعتبار ظاهر معناه .

وعبر بالانتباذ مرتين الأولى : لدلالته على انفرادها واعتزالها قومها للعبادة ، والثاني لبيان حالها عند لبيان حال مريم حين جاءها المخاض، حيث أن النبذ يعني الطرح والإبعاد [٨٠] والانتباذ في الأصل افتعال من "نبذ" ثم أطلق على الفعل الحاصل بدون سبق فاعل له [٨١] .

وتنكير "مكانا" (سواء كان مفعولا فيه أو مفعولا مطلقا)[٨٢] لعدم تعلق الغرض بتعيين نوعه ، إذ لا يفيد كمالا في المقصود من القصة -

---

[٨٠] - المفردات مادة ن. ب .ذ .

[٨١] - التحرير والتنوير ج٧ ، ص ٧٩ ..

[٨٢] - قال ابن الأنباري "مكانا" منصوب من وجهين أحدهما على الظرفية والعامل فيه انتبذت والثاني على المفعول المطلق والعامل فيه مقدر وتقديره قصدت مكانا قصيا شرقيا على ان شرقيا وصف له . البيان في غريب إعراب القرآن ، أبو البركات ابن الأنباري ، ت. د.طه عبد الحميد طه ، مراجعة مصطفى السقا ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م ، القاهرة ، ج٢،ص١٢١-١٢٢ .

والله أعلم - وأكتفي بوصفه أنه فـي مكان شرقي ، قيل شرقي بيت المقدس ، وقيل كان ما يلي المشرق عندهم خيرا مما يلي المغرب[٨٣] ، وذكر كون المكان شرقيا لفتة بديعية في تاريخ الشرائع السماوية [٨٤]

واتخاذها حجابا عن أهلها – على الأرجح - لتعبد الله [٨٥] والروح الملك تمثل لها في صورة البشر السوي المكتمل الخلق للإشارة الى كمال عصمتها حيث ظنته بشرا اختبأ لها ليراودها عن نفسها ولذا بادرته بالتعوذ منه مبادرة بالإنكار على ما توهمته من قصده

فجملة " قالَتْ إنِّي أعُوذُ بالرَّحْمَن مِنْكَ " خبرية مؤكدة بحرف التأكيد لتخبره بانها تلجأ الى الله وتجعله معاذا لها منه ، ولا يخفى ما في ذلك من التذكير والوعظ له ، حيث جاء التذكير بصيغة الشرط المؤذن بالشك في

---

[٨٣] - نقل عن ابن عباس قوله مكانا أظلتها الشمس أن يراها أحد منهم ، وذكر أن هناك أقوال أخرى . تنوير القباس من تفسير ابن عباس ص ٢٥٤ ، أنوار التنزيل ج ٥ ، ص ٤٣٧ – ٤٣٨ ، جامع البيان في تفسير القرآن ، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، دار المعرفة للنشر ، بيروت – لبنان ، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧ م ، ط١ ، توزيع عباس الباز .ج ١٦، ص ٤٦ . نقل عن ابن عباس قوله مكانا أظلتها الشمس أن يراها أحد منهم ، وذكر أن هناك أقوال أخرى .

[٨٤] - - قيل هذا دلالة على سبب اتخاذ النصارى الشرق قبلة لصلواتهم ، إذ اتخذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذ ميلاده عليه السلام قبلة ؛ فصلوا قبل مطلع الشمس ، فذاك الاستقبال ليس بأمر من الله ، وإنما كانوا في زمن عيسى يستقبلون بيت المقدس انظر الجامع لأحكام القرآن ج١٦ ، ص ٤٦ ، المحرر الوجيز ج ٥ ، ص ٤٤٢ ، روح المعاني ج ٨ ، ص ٧٥ ،- التحرير والتنوير ج٧ ، ص ٨٠ ،

[٨٥] - قيل لتغتسل من الحيضة وقيل لتمتشط وقبل للعبادة ربها وهذا الأخير أظهر على أشهر الأقوال ، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ٢٥٤ ، انظر المرر الوجيز ج ٥ ، ص ٤٤٣ ، روح المعاني ج ٨ ، ص ٧٤ .

تقواه لتحريك خشيته لله واستجاشة مشاعره ، وكذا التعبير بفعل الكون الدال على كون التقوى مستقرة فيه وهذا الأسلوب أبلغ في الوعظ والحث على العمل بالتقوى .

وأما قوله " إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ " وما فيه من قصر إضافي فذاك ردا على قولها (إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا) ليثبتها ويهدئ من روعها فما هو إلا رسول من ربها ،

وأما قولها : (وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) فقد جمعت بين تبرئة نفسها من البغاء بما يتضمنه فعل الكون من تمكن الوصف (البراءة) من الموصوف ، وبين عدم اقترانها بزوج ، والمراد تأكيد نفي بغائها قبل هذا الوقت ، ولن ترضى بأن توصم به فيما بعد ، وهذا هو التفكير الطبيعي في التصور البشري ، إذ لا يكون جنين إلا بإحدى الوسيلتين التي أشارت إليهما .

ولذا وردها جواب الملك لها فيما بعد (قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ) عدول عن ابطال مرادها من المراجعة ، وبيان لسببه فهو أمرٌ مقدر ومقضي من المولى تعالى ، وليكون معجزة وعلامة للناس تدلهم إلى معرفة الله وعبادته ، وليكون رحمة لبني اسرائيل أولا وللبشرية عامة ثانيا . سواء جرت به السنة المعهودة بين البشر أم جرت بغيره .

وجملة (لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) أنبئت عن كرامة وضعها الله لمريم (وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً) أي كرامة للغلام فوقع التفات من طريق الغيبة إلى طريق

المتكلم ، وأما قوله (وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا) فذلك قطعٌ للمراجعة عليها وإنباءٌ لها بأن التخليق حاصل في رحمها .

وجاء قولها (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ) للتفريع والتعقيب لتدل على أن حملها بالغلام كان من فور تلك المراجعة ، فأعقبه خروجها بعيدا عن أهلها وقولها قصيا ، القَصَى البعد والقصي البعيد [٨٦] أي بعيدا عن مكان أهلها .

"فأجاءها " أي ألجأها المخاض [٨٧] وأصله جاء ، وعدي بالهمزة فقيل "أجاء" أي جعله جائيا لتصوير إلجـــاء المخاض لها إلى جذع النخلة ، ويطلق الجذع على العود الأصلي للنخلة الذي يتفرع منه الجريد ، أي إلى أصل نخلة ليس لها جريد ولا سعف ولكنها التجأت إليه لمخاضها .

وأما " قالت" فهو استئناف بياني ، لأن السامع يتشوف لمعرفة حالها قرب وضعها بعدما كان أمرها مستترا غير مكشوف بين الناس ، وقد حان انكشافه فيجاب السامع بأنها تمنت الموت قبل ذلك ؛ فقد بلغت حالة من الحزن رأت فيها الموت أهون عليها ، لا لألمها بل لخشية أن تتهم في قومها ، يدل على هذا قولها " قبل هذا" تعني الحمل الذي ظهر الآن ويتحقق بحدوث الولد ، فلا يتطرق لها بعرض يطعن ، ولا يلحق بأهلها

---

[٨٦] - المفردات مادة ق ص ي .

[٨٧] - اختلف في مدة حمل مريم لعيسى هل هي كالمعتاد لحمل المرأة أم ستة أشهر أم ثمانية ، أم فور حملها له ، ولم يذكر القرآن شيئا عن هذا لعدم وجود الحاجة له ، وأصح الأقوال ما ذكره ابن عباس " ليس إلا أن حملت حملها فوضعت في ساعة واحدة " ، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٢٥٤ ، انظر المحرر الوجيز ، جامع البيان في تفسير القرآن ، الجامع لأحكام القرآن ، روح المعاني ، تفسير أبي السعود ، التحرير والتنوير ، المواضع السابقة .

معرة ، ولم تتمن الموت وقت الحمل لأن الموت حينذاك لا يدفع عنها الطعن بل يثبته ،فقد تتابعت عليها المواقف فواجهتها بإيمان وصبر ، ففي الموقف الأول واجهت الحصانة والتربية والأخلاق التي نشأة عليها ربيبة زكريا ، وفي هذه تواجه المجتمع بالفضيحة ، يضاف إليها ، ألامها الجسدية المبرحة ، بجانب ألامها النفسية ، ووحدتها بعيدا عن أهلها وقرابتها ، ليظهر مدى صدقها وصبرها على أمر ربها ، ولم يجتمع أمر ويشتد على نفس مريم إلا مواجهتها المجتمع بالفضيحة ، لذا كان تمنيها للموت واندثار ذكراها بين الناس ، فجاء ت[٨٨]منيها الموت على صيغة فريدة بليغة تعرب عن حالها (وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا) تعني الشيء الحقير الذي من شأنه أن ينسى ، ولا يتألم لفقده لهوانه ، فالعرب تسمي الأشياء التي يغلب إهمالها أنساء ، فقولها النسي أي ذكرها جاري مجرى النسي القليل الاعتداد به ، ولذا أعقبه قولها (منسيا) لأن النسي يقال لما يقل الاعتداد به ، وإن لم ينس ، وقد أرادت المعنيان القلة والصغر والنسيان .

ووصفها للنسي بالمنسي للمبالغة في نسيان ذكرها ، أي ليتني كنت شيئا غير متذكر وقد نسيه أهله وتركوه فلا يلتفتون إلى ما يحل به ، فلم تتمنى الموت فقط ، بل تمنت معه انقطاع الذكر بين أهلها. [٨٩]

فما كان يشغل مريم في تلك اللحظات هو براءتها وعدم معرة أهلها ، ولذا عاجلها سبحانه بالبشارة (فناداها من تحتها) أي فور وضعها أتتها

---

[٨٨] - المفردات مادة ن س ي .

[٨٩] - المحرر الوجيز ج ٩ ، ص ٤٤٤- ٤٤٦ ، روح المعاني ج ٨ ، ص ٧٤ -٧٥ ، تفسير أبي السعود ج ٥ ، ص ٢٥٩ ، التحرير والتنوير ج ٧ ، ص ٨١ .

البشارة بنداء ابنها [٩٠] لها (أَلَّا تَحْزَنِي) والتعبير بـ "من تحتها" مشهد يوضح سرعة مبادرتها بالبشارة لتسليتها وتثبيتها ، وفيه تصوير لتلك الحالة التي تصور تمام اتصال الصبي بأمه ، ونطقه بالبشارة قبل انفصاله عنها ، فيرشدها إلى طعامها وشرابها ، ويدلها على حجتها وبرهانها .

ولذا جاءت "أن" تفسيرية للفعل "ناداها " ، وقوله (قد جعل) خبر مراد به التعليل لجملة (أَلَّا تَحْزَنِي) أي حالتك جديرة بالمسرة دون الحزن لما فيها من الكرامة الإلهية فقد وهبها ربها طعاما هنيا وشرابا طيبا كرامة لها ، وتقدم ذكر الماء على الشراب لأهميته للإنسان وعدم قدرته الاستغناء عنه ، ثم قدم ذكر الأكل على الشرب[٩١] (فَكُلِي وَاشْرَبِي) وَقَرِّي لبيان تمام النعمة عليها ، وقد يكون ذلك لفائدة طبية أن النفساء تأكل الرطب ثم تشرب الماء ، ليساعد جهازها التناسلي على استعادة قوته.

أما الإعجاز في ظهور الرطب ؛ فذاك أن الوقت لم يكن إبان رطب حيث كان الوقت شتاء [٩٢] ، كما أن جذع النخلة التي أنبتت كان جذع ميت ؛ فسقوط الرطب منها خارق للمعتاد ، ولذا قال تعالى " جذع نخلة " ولم يقل نخلة لأنها لم تكن كذلك ، وأما ذكرها بالتعريف ثانياً (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ) فذلك للعهد أي التي كانت جذعا ميتا ، وجعل ثمرها رطبا

---

[٩٠] - اختلف فيمن ناداها من تحتها أهو عيسى أم جبريل ، قال ابن عباس نادها جبريل وكان في بقعة من الأرض أخفض من البقعة التي كانت عليها ، والظاهر أن الذي كلمها عيسى ، المحرر الوجيز ج٩ ، ص ٤٥١

[٩١] - في ظلال القرآن ج ٤ ، ص٢٣٠٧ ، تفسير الشعراوي ج ١٥ ، ص ٩٠٦٥

[٩٢] - الجامع لأحكام القرآن ج ١١ ، ص ٩٢ ، التحرير والتنوير ج ٧ ، ص ٨١ .

دون التمر لأنها أشهى للنفس إذ هي فاكهة أما التمر فغذاء ، ولما فيها من فائدة للنفساء ، فالرطب تمر لم يتم جفافه ، وجني أي مجتنى وفيه كناية عن حداثته وقرب انفصاله عن نخله ولما في ذلك من الإشارة إلى طيب مذاقه وطراوته ، فالرطب متى كان أقرب عهدا بنخلته كان أطيب مذاقا وقوله " تُسَاقِطْ " عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا " مضارع لبيان مسارعة الرطب إلى التساقط حال هزها للجذع استجابة لها ومطاوعة لهزها ولبيان تكرار التساقط من النخلة كلما هزتها مريم – والله تعالى أعلم -

وهزي إليك قد يكون فيه دلالة على أن إنبات الجذع اليابس رطبا ببركة تحريكها إياه ولذا عدي بحرف الباء لتأكيد لصوق الفعل بمفعوله ، وتلك كرامة أخرى لمريم بقوة يقينها بمرتبتها وتثبيتا لها وإيناسا لنفسها .

وأما قوله "اليك" فلتضمين الفعل " هزي " معني قربي أو أدني إليك أي حركي جذع النخلة ليقرب اليك ويلين بعد يبسه ويسقط عليك رطبا ، وكان هذا التعبير للإشعار بان فاعل الفعل ومتعلقه متحدان .

وقوله " فكلي وقري " تثبيت لها وطمأنة لنفسها ببيان أنها في بحبوحة من العيش وقرار العين كناية عن السرور والهناء ، بما فيه من الفرح والسرور بمولودها . فقد تمت عليها النعم ؛ الشراب فالطعام فالقرار والسكينة والهدوء النفسي .

فجسدت بهذا للبشرية حالٌ من أحوال الأم مع ابنها ؛ اذ انشغلت ببراءتها وتنزيه أهلها عن مولودها ، ونفسها ، فتغلب حب العفة والنزاهة على عاطفتها .

"فإما ترين " فقد أرشدها ربها على لسان عيسى إلى الصوم عن الكلام ليكفيها عيسى الاحتجاج[٩٣] فتستريح من سؤال السائلين ومجادلة الجهلة لقطع المراجعة والمجادلة مع من يريد مجادلتها فكفاها ربها ما أهمها من شأن قومها (فقولي " إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ " أي فانذري الصوم وإن لقيت احدا من البشر فقولي ذلك ، وحذفت الجملة لقرينة الثانية، وقيل بل المراد أن تؤدي ذلك بالإشارة إلى طفلها بقرينة قوله " فَأَشَارَتْ " ولذا تأكد الفعل بنون التوكيد " تَرَينَّ " لتأكيد رؤيتها للبشر والتأكيد على امتناعها عن الكلام .

وأما التعبير بـ"انسيا" فللدلالة على رفضها التام للتخاطب مع بني البشر وبيان أن أمرها أمر خارج عن نطاق ادراكهم -والله اعلم-

" فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا " بينت الفاء أن مجيء مريم كان عقب انتهاء الكلام الذي كلمها ابنها ، وكأنها قرت نفسا فجاءت قومها –الذين كانت تخشى مساءلتهم لها – حاملة عيسى معها ، وجملة (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ) وضحت حال مريم عند مجيئها قومها مبرزة ابنها معلنة له ، غير ساترة فقد قرت عينا وسرت به وزاد يقينها ، حيث علمت أن ربها سيبرئها على لسانه ، مما يتهم به من جاء على حالتها .فقد زال خوفها وبرزت عاطفة أمومتها .

---

[٩٣] - قيل كان من شرع السابقين ومن ضروب عبادتهم الانقطاع عن الكلام التحرير والتنوير ج ٧ ، ص ٩٠

وجملة "يا مريم " مستأنفة استئنافا بيانيا لتشوق السامع لمعرفة خبرها ، فعلم السامع بسؤال قومها " قالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ.." الدال على التوبيخ والتقريع .

وخطابهم لها بنسبها إلى هارون ؛ إما لأنها من إحدى النساء من ذرية هارون أخو موسى ، أو كان في تلك الحقبة رجل اسمه هارون ، عرف بالصلاح والتقوى ، كانت شبيهة له في العبادة ، فخوطبت بالإضافة إليه زيادة في توبيخها وتقريعها وهذا أقرب [٩٤].

وأما قولهم " فريا " فللمبالغة في التقريع أي الشنيع في السوء فليس من شأن أهلها أن يأتوا بمثل ما أتت به فقد خالفت سيرتهم ..

ويقتضي القول الثناء الصريح على أبويها فالمتوقع منها أن تكون مثليهما .

وأما قولهم " امْرَأَ سَوْءٍ " فسوء مصدر ساءه وأفسد حاله ، وإضافة اسم إليه فللدلالة على أن السوء من شؤونه وأفعاله ، وأنه بذاته متصدر للسوء ؛ أي رجل عمل مفسد .

---

[٩٤] - المحرر الوجيز ج ٥، ص٤٢٤-٤٤٤ ، الجامع لأحكام القرآن ج ١٦، ص٤٦ ، روح المعاني ج٨ ، ص ٧٤-٧٦، التحرير والتنوير ج ٧، ص٩٦ -٩٧ .

فما كان رد مريم عليهم إلا نفذت أمر ربها ، فأشارت إشارة تدل على أنها تحيلهم للطفل ليسمعوا منه الجواب بدليل قولهم التالي " من كان في المهد صبيا [٩٥]

وزيد فعل الكون وجاء على المضي[٩٦] "كان في المهد " للدلالة على تمكن الظرفية في المهد وذلك للمبالغة منهم في الإنكار والتعجب من استخفافها بهم – كما ظنوا- .

ثانيا : عاطفة الآباء في القرآن الكريم

(آيات من القرآن الكريم أنموذجا)

كثيرون كتبوا – ويكتبون – عن عاطفة الأمهات . وتحدث الأدباء والقصاصون عن مظاهر عاطفة الأمومة ، وأجرى الباحثون الكثير من الدراسات والأبحاث عنها . لا عند البشر فحسب بل لدى الكائنات الأخرى أيضا ؛ أما عاطفة الآباء فلم تنل من الاهتمام ما نالته عاطفة الأمومة رغم أن عاطفة الآباء تجاه أبنائهم جياشة قوية وغزيرة ، كما أن قلوبهم عامرة بالمحبة والعطف والحنان تجاه أبنائهم ، ولكن الآباء يظهرون عواطفهم بطريق يختلف عن الأمهات ، فطبيعة الرجل وما حباه الله من قوة وتماسك تجعله لا يحسن التعبير عما في ذاته ، بل قد يخطئ أحيانا في التعبير عن مشاعره ، لذا أغفلت عاطفة الأب وقل الحديث عنها .

---

[٩٥] - التحرير والتنوير ج٧ ، ص ٩٧ .

[٩٦] - "من" اسم موصول "في المهد" خبره صبيا حال للاسم الموصول

١. معنى لفظ " الأب " في القرآن الكريم :-

الأب: الوالد، ويسمى كل من كان سببا في إيجاد شيء أو صلاحه أو ظهوره أبا، ولذلك يسمى النبي صلى الله عليه وسلم أبا المؤمنين، قال الله تعالى: (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) الأحزاب ٦ ويقال : أبو الأضياف لتفقده إياهم، وأبو الحرب لمهيجها، وأبو عذرتها لمفتضها.

ويسمى العم مع الأب أبوين، وكذلك الأم مع الأب، وكذلك الجد مع الأب، قال تعالى في قصة يعقوب: ﷺ (إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ) البقرة ١٣٣ وإسماعيل لم يكن من آبائهم وإنما كان عمهم ، وسمي معلم الإنسان أبا .

وقوله تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ) الأحزاب ٤٠ إنما هو نفي الولادة، وتنبيه أن التبني لا يجري مجرى البنوة الحقيقية [٩٧].

قال تعالى : (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ) سبأ٤٣ إيراد حكاية تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم مقيدةً بالزمن الذي تتلى عليهم فيه آيات الله البينات تعجيب من وقاحتهم حيث كذبوه في أجدر الأوقات بأن يصدقوه عندها لأنه وقت ظهور حجة صدقه لكل عاقل متبصر، وحذف فاعل التلاوة لظهور أنه الرسول ﷺإذ هو تالي آيات الله ، والإشارة في قولهم: { ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم } إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. وعبروا بالإشارة

---

[٩٧] - المفردات مادة أبا .

دون الاسم الصريح لإفادة حضورهم مجلس التلاوة وذلك من تمام وقاحتهم فقد كان النبي ﷺ يقرأ عليهم القرآن [٩٨] .

وأما قوله سبحانه :- (اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) الصافات ١٢٦

فالجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً والخبر أتى للتنبيه على الخطأ في العبادة، وزيادة التصريح لأن المقام مقام إيضاح لأصل الديانة، فالكلام سيق لتذكيرهم بأن من أصول دينهم أنهم لا ربّ لهم إلا الله، وهذا أول أصول الدين ، فهو ربّ آبائهم فإن آباءهم لم يعبدوا غير الله من عهد إبراهيم عليه السلام وهو الأب الأول[٩٩] حيث تميزت أمتهم عن غيرهم [١٠٠]

كما ورد ذكر الأب في القرآن الكريم في موطن الحديث عن الأب بالولادة - الأب الحقيقي – في قوله تعالى :-

(وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا) النساء ٢٢

فقد كان مما يورث الأب أبناءه النساء كرها، فيكون ابن الميّت أولى بزوجة أبيه - إذا لم تكن أمَّهُ- فنهوا عن هذه الصورة نهياً مغلّظا ثم أصبح من المحرّمات ، فكانوا ينكحون زوجات آبائهم وكان منهم من يمقته من ذي مروآتهم، ويسمونه نكاح المقت. وكان المولود عليه يقال له المقتي.

---

[٩٨] التحرير والتنوير ج ٨ ص ١١٣

[٩٩] - وقبل يعقوب قال تعالى : { ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيّ إن اللَّه اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون } البقرة ١٣٢

[١٠٠] - التحرير والتنوير ج٩ ص ١١١

ومن ثم قيل: { وَمَقْتاً } كأنه قيل: هو فاحشة في دين الله بالغة في القبح، قبيح ممقوت في المروءة ولا مزيد على من يجمع القبحين [١٠١].

و التعبير { ما نَكح } بمعنى الذي نكح مراد به الجنس ، ولذلك عبر { ما } عوض (مَن) رغم أن المعبر عته العاقل لأنّ (مَن) تكثر في الاسم الموصول المعلوم، ثم جاء البيان بقوله: { من النساء } فسوّى بين (ما ـــ ومن) فرجحت (مَا) لخفّتها، والبيان أيضاً يعيّن أن تكون (ما) موصولة. وعدل عن اللفظ الصريح "أن يقال: لا تنكحوا نساء آبائكم " ليدلّ بلفظ نكح على أنّ عقد الأب على المرأة كاف في حرمة تزوّج ابنه إياها [١٠٢].

والنهي في الآية يتعلّق بالمستقبل، والفعل المضارع مع النهي مدلوله إيجاد الحدث في المستقبل، وهذا المعنى يفيد النهي عن الاستمرار على نكاحهنّ إذا كان قد حصل قبل ورود النهي [١٠٣].

٢. عاطفة الآباء :-

أ ـ قوة العاطفة

صور القرآن الكريم عاطفة قوية واضحة تظهر مدى حنو الآباء على أبنائهم وشدة حبهم واهتمامهم بهم ، ولم يعرضها في صورة يظهرها بأنها

---

[١٠١] ـ الكشاف ج٢ ص ١١١

[١٠٢] ـ التجرير والتنوير ج ٢ ص ١٤٥ ، الكشاف ج٢ ص ١١١

[١٠٣] ـ الكشاف ج٢ ص ١١١

أقل قوة من عاطفة الأمهات ، وهناك الكثير من النماذج والآيات الدالة على ذلك منها قوله تعالى:-

(آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) النساء ١١

تتناول الآية التقسيم الشرعي للإرث بعد وفاة الإنسان فتعطي كل ذي حق حقه وفق نظام الشريعة الإسلامية [١٠٤] فتضع حقا للأبناء وحقا للزوجات وحقا للإباء ، ثم تختم الآية بالإيماء إلى الآباء بتذكيرهم ، وتحذيرهم بإعطاء كل ذي حق حقه ، معتمدة قانون الفائدة للإقناع المؤذن بالتنفيذ ذلك أن المتوفى – أو المريض المشرف على الوفاة - لا يعلم أيهما أقرب له وأكثر نفعا أبويه أم أبنائه ، فالشارع – سبحانه – يعلم أن النفس خلقت على نحوٍ جعلها تحنو على الأبناء أكثر من الآباء ، وتعطف عليهم ، مما قد يدفعها إلى الوقوع في الخطأ ، فتميز بالهبة والعطية الأبناء - دون الوالدين- فتحرمهما حقهما الشرعي المفروض لهما من الخالق ؛ ولذا نبه- سبحانه - بعد أن فرض الحقوق وقسمها ، على أهمية توجيه الحقوق لأهلها . وللتأكيد على الأمر وتثبيته في الأذهان تقدم ذكر (آباؤكم وأبناؤكم) على الفعل (لا تدرون) ، وللتأكيد على أحقية الأبوين تقدم ذكرهما (آباؤكم) على ذكر الأبناء (أبناؤكم) .

فالملاحظ في الآية السابقة أنها تحدثت عن المتوفى وتقسيم تركته واهتمت بالحديث عن عدم تغليب عاطفة المتوفى وتوريث أبنائه دون أبائه

---

[١٠٤] - التحرير والتنوير ، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، دار سحتون ، تونس ، ج ٤ ، ص ٢٦١-٢٦٣

ولم تفصل في الحديث إذا كان المعنيّ بالحديث أماً أم أباَ ؛ فدل ذلك على تماثل العاطفتين في تغليب حب الأبناء على الآباء

وهنا نعرج إلى قوله سبحانه :-

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ) الرعد ٢٠-٢٣

في هذه الآية يعد الله المؤمنين الملتزمين بالتعليم الشرعي بالجنة وذكر من صفاتهم أنهم يوفون بعهودهم ومواثيقهم ، ويصلون ما أمرهم الله بوصله من أقربائهم ورحمهم ، ويخشون ربهم ويعظمونه ، ويخافون يوم الحساب فيتركون كل عمل سيء خشية ذاك اليوم ، ولتستقيم أعمالهم ، ولتصبح الفضائل خصالا لهم تسلحوا بالصبر وداوموا على العمل ولم ينقطعوا عنه ابتغاء رضاء ربهم ورحمته ، فأقاموا الصلاة وأنفقوا وتصدقوا - سرا وجهرا - ليستعينوا بهما على أنفسهم وغلبة هواهم ثم هم بعد ذلك يدفعون السيئة بالحسنة ويتبعون الإساءة بالإحسان ليكون ذلك علاجا لأنفسهم ودواء لها وقد عبر عن تلك الأعمال كلها بالفعل المضارع (يوفون – لا ينقضون - يصلون – يخشون – يخافون –يدرؤون) [١٠٥]

[١٠٥] - التحرير والتنوير ج١٣ص ١٢٤١٢٧ .

للدلالة على أن تلك الإعمال متجددة متكررة للإشارة إلى استمرارهم ومداومتهم عليها ، كما عبر عن الأخرى بالفعل الماضي (صيروا – أقاموا أنفقوا للدلالة على تحققها والتأكيد على حدوثها ومن كانت تلك أعمالهما كيف كانت مجازاتهم ؟ كان جزائهم خيرا ؛ جنات عدن أي جنات الاستقرار والخلود ولذا عبر بالفعل المضارع (يدخلونها) لتستحضر العقول والنفوس حالة الابتهاج والسرور الحادثة ، وللمبالغة في إكرامهم ولكمال التنعيم يدخل أباءهم وأزواجهم وذريتهم معهم بشرط صلاحهم فإكرامهم امتد إلى إدخال أصولهم وفروعهم ومن اقترن بهم من أزواجهم ، والملائكة يغشونهم من كل باب من أبواب بيوتهم في الجنة [١٠٦] .

والملاحظ في الآية أنها جمعت في جزاء هؤلاء المتقين - رجالا ونساء- بين دخول الجنة ودخول الآباء والأبناء معهم ودخول الملائكة لتجتمع لهم البشارة ويكتمل لهم الجزاء فمساواة القرآن بين دخول الجنة والتكريم بدخول الذراري ودخول الملائكة دالُ بلا شك على قوة العلاقة بين الآباء والأمهات وأبنائهم ، يدل عليه قوله تعالى في نصٍ قرآني آخر (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) الطور ٢١

أما قوله تعالى حكاية عن يعقوب :- (قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) يوسف ١٢ وقوله سبحانه عنه في نفس السورة (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) يوسف ٨٤

---

[١٠٦] - التحرير والتنوير ج١٣، ص ١٣١

فقد أظهرت الآيتان قوة عاطفة يعقوب وشدة تعلقه وحنوه وعطفه على ابنه يوسف

فالآية الأولى أبرزت حب يعقوب لابنه يوسف ﷺ إذ كان يتألم ويحزن لبعده عنه ، بل ويمتزج ذلك الحب والحزن بالخوف عليه من اغتيال الذئب له حين يلهو عنه أخوته باللعب واللهو والسباق، وقد صرح يعقوب بحزنه في حال ذهابهم به وعدم قدرته على مفارقته وعدم صبره عنه ؛ ليصرفهم عن الإلحاح عليه في الطلب، حيث أن من شأن الابن البار أن يتقي ما يحزن والده ولهذا تظهر الجملة مصدرة بحرف التأكيد "إن" ليقطع عليهم سبيل الإلحاح عليه بتركه[١٠٧]

أما الآية الثانية فقد تحدثت عن حال يعقوب عليه السلام –حين ابتلي بابنه الثاني بنيامين – حيث تولى عن أبنائه واختلى بنفسه [١٠٨] ، فدلت خلوته على شدة تجرعه للحزن لأنه لم يشكه لأحد قط ، لعلمه أن لا معين ولا مذهب لحزنه إلا بزوال المسبب الذي أوجده ألا وهو عودة يوسف ﷺ وأخوته ، وليقينه بأن البشر لا قدرة لهم على هذا ، لذا لجأ إلى ربه يبثه شكواه وهو موقن بزوال كربه وانفراج همه . وإن ظهر من الآية تجدد أسفه على يوسف ﷺ وتحسره عليه رغم أن الحادث الجديد كان مصيبته في أخويه ؛ فذلك لأن رزأه بيوسف كان الأول وحزنه عليه أخذ بمجامع قلبه لا ينساه [١٠٩]، وقد استمر حزنه على يوسف حتى ابيضت

---

[١٠٧] - التحرير والتنوير ، ج١٢ ص٢٣٤، روح المعاني ، ج٦،ص١٩٤

[١٠٨] -. روح المعاني ج ٧، ص٣٩-٤٠

[١٠٩] - التحرير والتنوير ج٦ ، ص٤٢-٤٣، روح المعاني ج٧-ص٤٠

عيناه ، فتوالي إحساس الحزن على الدماغ قد يفضى إلى تعطيل عمل عصب الإبصار لدى الإنسان [١١٠] .

ويظهر للمتأمل في الآيات القرآنية التالية في سورة يوسف ؛ أن الله قد أنعم عليه برد بصره الذي عطب ؛ بنفس المسبب الذي تسبب له بذهابه قال تعالى :- (اذْهَبُوا بقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أبي يَأْتِ بَصِيرًا) يوسف٩٣ حيث ردّ الله عليه بصره [١١١] بعد أن وجد ريح يوسف .

فتظهر في الآيات عاطفة الآباء قوية غزيرة ، لا تقل في قوتها عن عاطفة الأمهات ، ولكنها تبنى على الحكمة والهدوء .كما أنها ليست عاطفة عادية ، تبنى على المشاعر والانفعالات فحسب ، وإنما تمتد إلى رعاية مستقبل الأبناء والاهتمام بمصيرهم. وهنا تجدر الإشارة إلى أن مؤشرات عاطفة الآباء تختلف -عنها عند الأمهات – من حيث أنها تنصب على النظرة المستقبلية

ب : طبيعة العاطفة :-

---

[١١٠] - علم النفس الفسيولوجي أ. د أحمد عكاشة و أ. د طارق عكاشة ، ط١٢ ، مكتبة الانجلو المصرية ،ص ٢٩-٣٠ .

[١١١] - كان الاعتقاد السائد سابقا أن الخلية العصبية لا تعوض ؛ إذ أن الإنسان يولد مزودا بكافة خلاياه العصبية التي ستبقى في جسمه دون زيادة حتى نهاية حياته ، فإذا تعرض إحداها للتلف ، لن تنشأ خلية عصبية جديدة لتحل مكانها ، ولكن تغيرت هذه المعلومة لأن المخ قادر على المطاوعة واللدونة (plasticity) وتكوين خلايا جديدة تعويضية ، علم النفس الفسيولوجي ص٣٠

صورت العديد من الآيات طبيعة العلاقة بين الآباء وأبنائهم ، وتحدثت عن مواقف وأحداث جرت بينهم من أبرزها قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) هود ٤٠- ٤٧

فتصدرت الآيات بتوضيح حال نوح في امتثاله لأمر ربه حين أوحى إليه ربه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، فنهي عن الحزن عليهم أو الابتئاس بفعلهم ، وأعقب بالأمر بصنع الفلك ليهيئ الله له نجاته ونجاة من آمن معه يقينا – استثناء لمن تردد منهم – ثم نهي عن طلب الشفاعة أو طلب تخفيف العقاب عن قومه– والمراد بالمخاطبة المنهي عنها مخاطبة طلب رفع العقاب عن قومه والشفاعة لهم لا مطلق الخطاب – ولعل في هذا توطئة لنهيه عن مخاطبته في شأن ابنه الكافر ، حتى يكون الرد عليه حين يعرض السؤال ألطف ، وقد أعلمه ربه بسبب صناعة الفلك وبما سيقع بعد

ذلك (بأنهم مغرقون) فأتت الجملة أسمية مؤكدة لتدل على شمول الغرق لكل من لم يؤمن ويركب السفينة ، فأنزل نوح منزلة السائل الذي يسأل عما سيحل بقومه ، وفي الإعلام بإغراقهم توطئة أخرى لنهي نوح عن المخاطبة في حال ابنه [١١٢] .

فلما جاء أمر الله وامتلأت الأرض بالماء أمر نوح بأن يحمل من كل زوجين أثنين لئلا تضيق السفينة وتثقل وكذلك أهله إلا الكافر منهم [١١٣] ، ونادى نوح ابنه قبل جريان السفينة ليركب معه ويبتعد عن المكذبين الضالين ، تعريضا بدعوته إلى الإيمان وتحذيرا له ، شفقة وخوفا عليه ، ظهر هذا جليا في أسلوب نداء نوح ابنه المنعزل عنه رغم تكذيبه له وعدم تصديقه له - (يا بني) بتصغير لفظ (ابن) مضافا إلى ياء المتكلم ، حيث يخاطب كالصغير شفقة عليه ورحمة به ، فالنداء مع حضور المخاطب مستعمل في طلب إحضار الذهن اهتماما بالغرض المخاطب فيه ، ورغم إعراض ابنه واستمراره في تكذيبه بقوله (سآوي إلى جبل يعصمني من الماء) الموحي بتهكمه به ، لا يزال نوح –عليه السلام – يشفق عليه ويحاوره ويدعوه إلى ركوب السفينة بقوله (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم).

وبعد انقضاء الأمر غلبت على نوح عاطفته تجاه ابنه فأقدم على نداء ربه وكأنه أراد نفعه في الآخرة ، أو أراد من ربه أن ينجيه من الغرق

---

[١١٢] - التحرير والتنوير ج ١٢، ص ٦٥-٦٧ .

[١١٣] - المستثنى ابنه الكافر وامرأته فقد كان لنوح امرأتين إحداهما صالحة ، والأخرى المذكورة في أخر سورة التحريم التحرير والتنوير ج ١٢، ص ٧٢ .

، فدعا ربه مقدما الاعتذار بأن له عذر الشفقة عليه (إن ابني من أهلي) ولذا بدأ الخبر بالتأكيد (إن) ، فأجيب من ربه بأنه ليس من أهل دينه واعتقاده لذا فهو ليس من أهله ، ونهي عن الإلحاح في السؤال له .

وبهذا تظهر الآيات القرآنية السابقة تصويرا كاملا لعاطفة الأب القوية المشفقة على الابن رغم ضلاله وتهكمه بوالده ، كما تسفر عن الآلية الصحيحة للعلاقة التي ينبغي أن تكون بين الأب وابنه المبنية على الاحترام المتبادل ، وتبادل وجهات النظر . ثم تضع قواعدا للآباء للتوجيه السليم بدأ بالحوار ثم الإقناع بطرح الدلائل والحجج وأخيرا إسداء النصح والإرشاد ، ومن ثم التوجيه لاتخاذ القرار. كما تضع شرطا أساسيا للعلاقة بينهما ألا وهو سلامة الروح والنفس أولا ، وعدم الإخلال بالمصلحة العامة ثانيا ، فإذا تعارضتا غلبت المصلحة العامة .

وبذا نعرج إلى وصايا لقمان لابنه حين يجمل له القول ، فيضع له منهاجا في حياته قاله تعالى :

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ) ١٣-١٤لقمان .

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)يَا بُنَيَّ أَقِمِ

الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ.) (١٩) ١٦-١٩لقمان

فلقمان يجمع لابنه في هذه الموعظة سلامة الاعتقادات ، والأعمال ، وأدب النفس ، وأدب المعاملة فيجمل له بذلك صلاح دنياه وأخرته ولذلك يفتتح خطابه معه بالتلطف له في القول بندائه – رغم حضوره لديه- ليستدعي حضور ذهنه وليستعطف قلبه لقبول ما سيلقى إليه من قول ، ثم يرفق هذا النداء بلفظٍ دالٍ على التصغير والملاطفة في القول (بني) كناية عن الشفقة عليه والتحبب إليه ، ودلالة على تمحض النصح وحب الخير له ، ليكون ذلك حاثا له على الامتثال للموعظة .

ولذا ابتدأها بأهمها قاطبة ؛ بطلب إقلاعه عن الشرك بالله حيث أن النفس المعدة للتزكية والكمال يجب أن يقدم لها تنقيتها من مبادئ الفساد والضلال ، فإصلاح الاعتقاد أصل إصلاح العمل ، ولذا علل للأمر فقال (إن الشرك لظلم عظيم) ففي الشرك ظلم لحقوق الخالق المستوجب للشكر والعبادة ، وظلم من المرء لنفسه إذ يخرجها عما أعدت وخلقت له. ثم ينتقل بنصحه لابنه إلى واجبه نحو والديه ويدفعه إلى البر بهما والحنو عليهما ، فيضع شريعة لتعامل الأبناء مع أبائهم ، مذكرا إياه بجهد أمه في حمله ليستعطفه نحوها وليعلل لتلك الوصاية التي يأمره بها حيث أن التعليل للأمر يفيد التأكيد على حدوثه، ويتضمن إثارة نفس الولد للبر بأمه مستتبعا البر بأبيه ، وكان اختيار الأم أولا اكتفاء بأن تلك الحالة من

ضعفها وتعبها تستدعي عناية الأب بها وبطفلها ورعايته لهما مما يقتضي البر به أيضا ، والبر يقتضي الإحسان إليهما ورعايتهما والانصياع لهما ما لم يأمرا بسوء أو شرك ، فإن أمرا بذلك فلا طاعة لهما . ثم أعقب ذكر بتذكيره بقدرة الله وعظمته وواسع علمه ليكون في ذلك تنبيها له على مراقبة الله في السر والعلانية .

ثم انتقل من تعليمه أصول العقيدة إلى تعليمه أصول الأعمال الصالحة فابتدأها بإقامة الصلاة ، والصلاة تعني لتوجه إلى الله بالخضوع والتسبيح والدعاء في أوقات معينة ، وصدر الصلاة في الأعمال لأنها تشتمل على الاعتراف بطاعة الله وطلب الاهتداء للعمل الصالح ، كما تتضمن الالتزام بالعمل والمداومة عليه ، ولذا نص على ذلك بقوله (إقامة) مما يعني المحافظة على أدائها في أوقاتها والمداومة عليها ، ثم انعطف إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يتضمن الإتيان بالأعمال الصالحة كلها على وجه الإجمال ، كما تضمن النهي عن المنكر اجتناب الأعمال السيئة على وجه الشمول أيضا . ونصحه له بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقتضي التنفيذ منه أيضا ، لأن الذي يأمر بفعل الخير وينهى عن فعل الشر يعلم ما في الأعمال من خير وشر ومصالح ومفاسد ، فالأولى أن يتقيها في نفسه .

ولذا يعقب ذلك بنصحه بالصبر على ما يصيبه ، وسبب تعقيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بملازمة الصبر أنهما قد يجران للقائم بهما معاداة أو أذى من بعض الناس ، كما أن للصبر فائدة وأجر عظيم يعودان على الصابر .

ثم ينتقل لقمان بابنه إلى آداب حسن معاملة الناس فنهاه عن احتقارهم أو الإعراض عنهم أو التكبر والتفاخر عليهم ، وهذا يتضمن أمره بإظهار مساواته مع الناس .

وبعد أن بين له آداب حسن المعاملة قفاها بحسن الآداب في حالته الخاصة ونفسه وخص حالتا المشي والتحدث ، لأنهما أظهر ما يلوح على المرء من آدابه ، فنصحه بأن يعتدل ويتوسط في مشيته ، ويخفض من صوته [١١٤] ؛ ليظهر بمظهر المؤدب المبجل المحترم .

فإذا تأملنا وصايا لقمان لابنه نلمس عاطفة الأب القوية العاقلة التي تهتم بتنمية وتهذيب نفس ابنه وروحه وترعى علاقاته ، ليس هذا فحسب بل يهتم بمظهره وخطواته وشخصه الخارجي ، وبذا نخرج إلى منهجية رائعة وضعها لقمان للآباء لتربية أبنائهم ؛ ينتج عنها جيل صالح سوي منها:-

- بدء الحديث بالتلطف والنداء المشعر بالتقريب والتحبيب .
- رعاية وتربية الأبناء تشمل جميع جوانب النفس البشرية ؛ الروحية والاجتماعية والنفسية والجسدية والتثقيفية .
- الاعتناء بالجانب الروحي والاجتماعي للأبناء يضمن لهم النجاح الذاتي ، والشخصية المثالية.
- تنبيه الآباء أبنائهم على أهمية البر بهما ورعايتهما .

---

[١١٤] - التحرير والتنوير ج٢١ ، ص ١٥٣-١٦٨ .

- تعويد الأبناء على المراقبة الذاتية ، بتذكيرهما بمراعاة الله في كل أمر والخوف منه في السر والعلانية .

- تنبيه الأبناء على أهمية الانخراط في المجتمع ، وحسن التعامل مع الآخرين بعدم التعالي عليهم أو الإعراض عنهم أو رفع الصوت عليهم .

- الاعتناء بتوجيه الأبناء إلى العناية بالمقومات الشخصية كالمظهر والحركة والصوت واللباقة في الحديث والمشي .

ج : عاطفة الآباء بين أبنائهم

ونختم الحديث عن عاطفة الآباء بالحديث عن نبي الله يعقوب وأبنائه قال الله تعالى :

١- (قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ) يوسف ٥

أسفرت العديد من آيات القرآن الكريم عن علاقة نبي الله يعقوب عليه السلام بأبنائه

وأما الآية السابقة فقد أبانت عن تحذير نبي الله يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عن إطلاع أخوته على رؤياه لإدراكه لغيرة أخوته منه ، لفرط فضله عليهم خُلُقاً وخَلقاً ، كما علم من أحوال بنيه قدرتهم على تعبير الرؤيا إجمالا وتفصيلا ، وذلك لعلمه أن تلك الرؤيا تنبئ عن رفعة سينالها يوسف عليه السلام على أخوته ، الأحد عشر ، فخشي إن قصها يوسف عليهم أن تشتد بهم الغيرة فتصل حدّ الحسد ، فيكيدوا له كيدا ليسلموا من تفوقه عليهم ، فقصد يعقوب عليه السلام من ذلك التحذير نجاة ابنه من

الأضرار التي قد تلحقه إن علموا ؛ ، ولذا قال : (فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً } أي يحتالوا في هلاكك ؛ ولذا صدر حديثه لابنه بالنداء الدال على التصغير والتحبيب والشفقة المراد منه التقريب والتلطيف والنصح .

وقول يعقوب عليه السلام ذلك لابنه يوسف تحذيرا له ، مع ثقته بأن التحذير لا يثير في نفسه كراهة لإخوته لأنه وثق منه بكمال العقل وصفاء السريرة ومكارم ، واللام في «لك» للتأكيد [١١٥] .

وأما قوله تعالى : (إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلإِنْسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } فالمقصود أنه ظاهرُ العداوة ، لا يألو جهداً في إغواء إخوتِك وإضلالِهم وحملهم على ما لا خير فيه، والجملة استئنافٌ بياني ، كأن يوسف عليه السلام قال: كيف يصدر ذلك عن إخوتي الناشئين في بيت النبوة؟ فقيل: إن الشيطان يحمِلهم على ذلك، ولما نبهه عليهما السلام على أن لرؤياه شأناً عظيماً يستتبع منافعَ ـ وحذّره إشاعتَها المؤدية إلى أن يحول إخوتُه بينها وبين ظهور آثارها وحصولِها [١١٦] .

وبهذا أشارت الآية إلى عدة أمور منها :-

- ضرورة مراعاة الآباء لشخصيات أبنائهم في التعامل كل بما يتناسب معه .
- مراقبة علاقة الأبناء بعضهم البعض والنحو بها للأفضل .

---

[١١٥] - . التحرير والتنوير ج٥ ،ص٢١٤ ، القرطبي ج١٩ ص ١١١ .

[١١٦] - تفسير أبي السعود ج ٤، ص ١١٢ .

- **محاولة التوجيه والإرشاد للحيلولة دون وقوع الخلافات المشكلات.**
- **توجيه الأبناء لتقوية العلاقات والروابط فيما بينهم .**

٢- قال سبحانه في موضع آخر : (وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) يوسف ١٨

٣- وقال عز وجل : (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ) يوسف ٨٣ – ٨٤

وأما الآيتين السابقتين :- فقد أبانتا عن غضب يعقوب من أبنائه وتهمته لهم بالتغرير بأخيهم وقد صدق ظنه بهم في يوسف ، ولم يتحقق ما ظنه بهم في بنيامين ومستنده في ظنه بهم علمه بأن ابنه لا يسرق ، وقياسه على تأمروهم في قضية يوسف من قبل .

ورغم حزنه على فقد أبنائه لم ينفس عن غضبه ، وإنما اكتفى بإخبارهم بعلمه بتآمرهم ومن ثم فوض أمره لربه ، ولا يخفى ما في هذا من التأنيب والردع للنفس ،وتخويفها بتوكيل الأمر وتفويضه لله .

وهنا تظهر لنا الآيات آلية التعامل مع الأبناء حال وقوعهم في الخطأ ، حيث أن محاسبة النفس ومعاتبة الضمير أشد وأقسى من محاسبة الآخرين .

٤- وقال تعالى :- (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) يوسف٦٧-٦٨

أسفرت الآية عن حال يعقوب مع أبنائه أخوة يوسف حينما هموا بالسفر لطلب التمويل بالطعام ومعهم أخاهم بنيامين

فبعد أن اطمأن لرعايتهم ابنه بنيامين بعد أن آتوه موثقهم وظهرت له المصلحة في سفرهم خاطبهم قائلا (يا بني) حين أزمعوا الرحيل موصيا إياهم بألا يدخلوا من باب واحد ، وإنما يدخلوا من أبواب متعددة ، والمدينة المقصودة مدينة " منفيس " وكانت حينئذٍ من أعظم مدن العالم لها أبواب متعددة ، وإنما نهاهم أن يدخلوها من باب واحد خشية أن يسترعي عددهم أو أزياؤهم أبصار أهل المدينة وحراسها – فأزياؤهم أزياء الغرباء عن أهل المدينة – فيتوجسوا منهم خيفة أن يكونوا أعينا للتجسس أو السرقة فيُرصد الحراس والأعين عليهم ، فيكون في ذلك ضررا لهم وحائلا دون سرعة وصولهم إلى يوسف عليه السلام ، فيحال بينهم وبين قضاء حاجاتهم ، ولما كان شأن إقامة الحراس والأرصاد أن تكون على أبواب المدينة ، اقتصر على تحذيرهم من الدخول من باب واحد دون أن يحذرهم من المشي في سكة واحدة من سكك المدينة ، ووثق بعرفتهم بسكك المدينة فلم يخش ضلالهم فيها ، كما علم أن بنيامين بصحبة أحد

من أخوته سيكون آمنا ، ولن يضل فيها ، والمراد من قوله كله ، إخفاء كونهم جماعة واحدة ولذا نص على " متفرقة " دون " متعددة " [١١٧].

فقد وضحت الآيات مشاعر الأب الحاني على أبنائه ، الخائف عليهم من المشقة أو التعرض للإيذاء والضرر ، الحريص على اجتماعهم في الرأي والعمل .

٥- (يَا بَنِيَّ ادْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) يوسف ٨٧

تتحدث الآية عن خطاب نبي الله يعقوب – عليه السلام – لأبنائه وحثه لهم للبحث عن يوسف وأخيه وإصراره على وجود يوسف ويقينه بلقائه ، ولا بصدر هذا إلا عن عاطفة قوية ثابتة موقنة ولا يخفى ما في تصريحه هذا من مكاشفة لأبنائه يتحقق معها كذبهم بادعاء أكل الذئب ليوسف عليه السلام [١١٨].

ومن الآية تظهر عاطفة الأب ومشاعره القوية المصرة على وجود ابنه رغم تضافر العوامل الدالة على عدمه ، كما تسفر عن ضرورة المكاشفة والمصارحة بين الأب وابنه عند إصرار الابن على الكذب .

وبذا نصل إلى أن القرآن قد صور عاطفة الآباء أجمل وأكمل تصوير ، وراعى علاقة الأب بأبنائه ، كما بين أسس وحدود المعاملة بينهم ،

---

[١١٧] - التحرير والتنوير ج١٣ ص ٢٠-٢١ ،

[١١٨] - - التحرير والتنوير ج ١٣، ص٤٢-٤٣ .

فوضع بذلك منهجا للآباء يتضمن تربية ناجحة لأبنائهم وعلاقة وطيدة بينهم .

خاتمة

تتسم عاطفة الأمهات والآباء بالقوة فأما عاطفة الأمهات فتتسم بأنها :-

- **عاطفة الأمهات جياشة قوية قد تندفع أحيانا فتضر أبناءها .**
- **تضبط الأم أحيانا انفعالاتها وتخفيها لأجل مصلحة أبنائها .**
- **تتغلب بعض الأمور على عاطفة الأمهات كالقضايا الاجتماعية والعرف الاجتماعي .**
- **قد تحجب بعض الظروف الاجتماعية عاطفة الأم فتحول دون ظهورها**

وأما عاطفة الآباء فتتسم بأنها :-

- **قوية غزيرة ،لا تقل في قوتها عن عاطفة الأمهات ، فهي مبنية على الحكمة والهدوء .**
- **عاطفتهم نحو أبنائهم ليست عاطفة اعتيادية ، تبنى على المشاعر والانفعالات فحسب وإنما تمتد إلى رعاية مستقبل الأبناء والاهتمام بمصيرهم.**
- **مؤشراتها تختلف -عنها عند الأمهات – حيث أنها تنصب على النظرة المستقبلية .**
- **لا تتأثر عاطفة الآباء القوية المشفقة على الأبناء بل تتسم بالثبات والاستمرار رغم ضلال وتهكم الأبناء .**

- **العلاقة السليمة مع الأبناء تبنى على الاحترام المتبادل ، وتبادل وجهات النظر .**

- **ينبغي أن يراعي الآباء قواعد التوجيه السليم، بدأ بالحوار ثم الإقناع عن طريق طرح الدلائل والحجج ، وأخيرا إسداء النصح والإرشاد ، ومن ثم التوجيه لدى اتخاذ القرار.**

- **لتقوية أواصر الروابط بين الأب وأبنائه لا بد من مراعاة سلامة الروح والنفس أولا ، وسلامة المصلحة العامة ثانيا ، فإذا تعارضتا غلبت المصلحة العامة .**

- **بدء الحديث بالتلطف والنداء المشعر بالتقريب والتحبيب .**

- **رعاية وتربية الأبناء ينبغي أن تشمل جميع جوانب النفس البشرية ؛ الروحية والاجتماعية والنفسية والجسدية والتثقيفية .**

الفهارس

ثانيا : فهرس الآيات القرآنية

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
أل عمران	١٥٩	٢
النساء	١١	٢٤
المائدة	١١١	٩
هود	٤٠-٤٧	٢٧
يوسف	٥	٣٠
	١٢	٢٦
	٨٤	٢٦
	٩٣	٢٧

	٨٧	٣١
النحل	٧٨	٥
الرعد	٢٠-٢٣	٢٥
مريم	١٦- ٢٩	١٧
طه	٣٦- ٤٠	٨
القصص	٥-١٣	٩
لقمان	١٤ ١٣-١٤	٥ ٢٨
الأحزاب	٦	٥
االطور	٢١ ١٦-١٩	٥
الأحقاف	١٥	٥
عبس	٣٤ - ٣٥	٧

القارعة	١-٣	٧
	٨-١١	٦

فهرس الحديث الشريف

الحديث	تخريجه	رقم الصفحة
رَغِمَ أَنْفُهُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ ...	صحيح مسلم	٣
" لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا	مسند الإمام أجمد بن حنبل	٢

فهرس المصادر والمراجع

١. أصول علم النفس العام ، عبد الحميد محمد الهاشمي ، ٢٠٠٢ ، جدة : دار الشروق

٢. البيان في غريب إعراب القرآن ، أبو البركات ابن الأنباري ، ت. د.طه عبد الحميد طه مراجعة مصطفى السقا ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م ، القاهرة

٣. التحرير والتنوير ، عبد القاهر ابن عاشور ، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس ١٩٩٧.

٤. تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، أبي السعود محمد بن محمد العمادي دار إحياء التراث العربي ، بيروت

٥. تفسير الشعراوي ، محمد متولي الشعراوي ، أخبار اليوم ، قطاع الثقافة .

٦. تفسير الكشاف ، للإمام الزمخشري ، ت . محمد مرسي عامر . مطبعة عبد الرحمن محمد القاهرة .

٧. تنوير القباس من تفسير ابن عباس ،أبي طاهر بن يعقوب الفيروزبادي ، دار الفكر ، بيروت

٨. جامع البيان في تفسير القرآن ، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، دار المعرفة للنشر ، بيروت – لبنان ، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧ م ، ط١ ، توزيع عباس الباز.

٩. الدر المنثور في التأويل بالمأثور ،الحافظ جلال الدين السيوطي ، صححها وخرج أحاديثها نجدت نجيب ، تقديم عبد الرزاق المهدي ، لبنان بيروت.

١٠. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ،لأبي الفضل محمود الألوسي ، دار الفكر .مصر ،د .ط.ت

١١. صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ، ٤٦٢٨ http://hadith.al-islam.com

١٢. علم النفس العام أ.د يوسف قطامي و أ. د عبد الرحمن عدس ، ٢٠٠٢، الأردن ، دار الفكر للطباعة .

١٣. علم النفس العام معاوية محمود أبو غزال ، ٢٠١٣ ، عمان : دار وائل .

١٤. علم النفس الفسيولوجي أ. د أحمد عكاشة و أ. د طارق عكاشة ، ط١٢ ، مكتبة الانجلو المصرية

١٥. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي المعروف بالسمين ، ت. عبد السلام أحمد الحلبي ، ط١ ، ١٤٢٤هـ ، ١٩٩٥م ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية .

١٦. في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة ، ط١٠ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، ج ٤ ، ص ٢٣٣٥ .

١٧. لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين ابن منظور دار صادر بيروت ، ط١

١٨. المحرر الوجيز ، ابن عطية ، ١٠٧. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : أبو محمد ابن عطية الأندلسي ، تحقيق : المجلس العلمي بفاس ، المغرب ، ١٣٩٩هـ /١٩٧٩ م .

١٩. مسند الإمام أحمد بن حنبل ، حديث رقم ٢٧٨٢٣ /http://hadith.al-islam.com

٢٠. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، مؤسسة جمال للنشر ، بيروت ، لبنان .

٢١. مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، تصنيف الراغب الأصفهاني ، راجعه وعلق عليه نجيب الماجدي ، المكتبة العصرية ، صيد – لبنان ، ٢٠١.